على هؤلاء بشعري بكيتُ

(قصائد في رثاء القمم)

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْـوَاتًا بَلْ أَحْـيَـاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُـونَ ﴾

[آل عمران: ١٦٩]

الدكتور

جابر قميحة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع: ١١٣١١/ ٢٠٠٤

الترقيم الدولى: I. S. B. N
977-265-536-5

دار التوزيع والنشر الإسلامية

مصر-القاهرة -السيدة زينب ص. ب ١٦٣٦
٢٥١ ش بورسعيد ت: ٣٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٣٩٣١٤٧٥
مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٣٩١١٩٦١١
www.eldaawa.com
email:info@eldaawa.com

تقديم

أحمد الله سبحانه وتعالى، فبه تستدفع المحنة، وبه تستجلب المنّة. وأصلى وأسلم على نبيه ورسوله محمد بن عبد الله؛ الذى تركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. وبعد..

فإنى أقدم للقارئ العربى والمسلم خامس دواوينى الشعرية، وجعلت له عنوانًا هو «على هؤلاء بشعرى بكيت»، فى رثاء سبع عشرة شخصية مسلمة مختلفة الجنسية؛ فمن المصريين: مرشدو الإخوان الثلاثة: الإمام الشهيد حسن البنا المرشد الأول للإخوان ومؤسس الجماعة، والأستاذ مصطفى مشهور المرشد الخامس، والأستاذ محمد مأمون الهضيبى المرشد السادس، ونجيب الكيلانى، وعباس محمود العقاد، وعلية الجعار، وأكرم زهيرى رحمهم الله.

ومن الفلسطينيين: الشيخ أحمد ياسين، والدكتور عبد العزيز الرنتيسى، وعبد الله عزام، وأبو الجهاد عز الدين القسام (وإن كان من مواليد سوريا).

ومن ليبيا: عمر المختار.

ومن سوريا: عمر بهاء الدين الأميرى.

ومن الهند: أبو الحسن الندْوى.

ومن الشيشان: جوهر دوداييف.

غير طالبين مجاهدين: واحد من تركيا، والثانى من السعودية .

ولكن جنسية واحدة جمعت هؤلاء جميعًا تحت مظلة واحدة، فالإسلام وطن وجنسية، ودين وجهاد، وعمل، وصدق الشاعر العربى القديم حينما سئل عن أبيه: أقْيسى هو أم تميمى؟ قال:

أبى الإسلامُ لا أبَ لـى سواهُ إذا افتخروا بقيس أو تميم

***

ويجمع بينهم كذلك الجهاد فى سبيل الله، والحق، والأرض، والعرض.. الجهاد بمفهومه الشامل الواسع: بالسلاح، أو المال، أو الكلمة. وقد يكون للكلمة الصادقة الهادئة أعظم الآثار والنتائج. وعن القرآن الكريم قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿**فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**﴾ [الفرقان: ٥٢]. فالكلمة الصادقة المؤمنة التى ترتكز على الحجة والبرهان، تشد الناس ، وتخترق شغاف قلوبهم، وتظل تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها. وقد صدق رسول الله ﷺ إذ قال: «**إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكمة**».

وكان لكلمات الدعاة والشعراء والأدباء الذين رثيناهم فى هذا الديوان من أمثال أبى الحسن الندوى، وعمر بهاء الدين الأميرى، ونجيب الكيلانى، وعلية الجعار آثار نفسية واجتماعية وتربوية وضعت الشباب على الدرب الصحيح فى عصر الصحوة الإسلامية، حتى تبلور فيها مفهوم الأدب الإسلامى، وأصبح يزاحم -فى قوة- غيره من الآداب العلمانية بما فيها من سقوط ومجانة وإباحية.

***

وقد عرَّف القدماء «المدح» بأنه ذكر محاسن الحى، وعرَّفوا «الرثاء» بأنه ذكر مـحاسن الميت. وهو تعريف، أو توصـيف جامد يعطى انطبـاعًا بأن هذا الغرض الشـعرى الفنى يهـدف -ولو فكريًا- إلى ما تهـدف إليه العلوم الإحصائية، بحيث تتفوق القصيدة على غيرها بعدد ما تعرضه من مناقب الميت ومآثره.

وآمل أن أكون قد وفـقت إلى مجانبة هذا الخط المتحجـر، فجاءت كل قصـيدة من قـصائد هذا الديوان لا مـجرد إشـادة بالمرثى، ولكن معايشة «لجُوَّانيته» النفسية والعقلية والروحية، وقيمه الدعوية، وبصماته فى مجتمعه، ومشاعر الأحياء بفقده، مع اتخاذ شخصية المرثى منطلقًا للنقد الاجتـماعى والسياسى، والإسـقاط المؤثر. . كل أولئك فى ثوب جمالى تتوافق وتتعانق فيه الأفكار بالوجدان والمشاعر.

***

وفى الديوان مطولتان دراميتان حواريتـان: الأولى عن الشهيد عبد الله عزام، والثانية بعنوان «البحث عن قـبر لعز الدين القسام»، وهى أطول من سابقتها، وأوفى درامية وإسـقاطًا، وتعد خروجًا شبه كامل عن «المرثية» فى شكلها التقليدى، وتكاد تكون عرضًا مأساويًا صادقًا لمظاهر النكبة التى يعيشها المواطن العربى.

***

هذا. وقـد ذيلت الديوان بـدراسـتـين مـوجـزتين، الأولى: عن «الشهيد أحمد ياسين فى نبض الشعراء» أى فى إبداعهم، وما أكثره!

والثانية: دراسة نقدية لشعر الشهيد الدكتور عبد العزيز الرنتيسى. وربما كانت أول دراسة نقدية لشعره، وهو قليل. وإن كان ذا مضامين إسلامية، وإنسانية وجهادية قوية رفيعة.

وأخيرًا أدعو لشهدائنا، ودعاتنا، ومرشدينا بالرحمة، وأن يحشرهم الله مع النبيين والصديقين والشهداء، وحسن أولئك رفيقا.

دكتور جابر قميحة

الدقى - الجيزة

جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ

komeha@ menanet.net

الإمام الشهيد حسن البنا

رأيت الإمام الشهيد (١٩٠٦- ١٩٤٩م)، واستمعت إليه مرة واحدة فى حياتى فى أواسط الأربعينيات، كنت فى قرابة العاشرة من عمرى آنذاك، وترك فى نفسى أثرًا عميقًا جدًا. وبعد استشهاده بعامين رأيت أحد تلاميذه يخطب فى مدينة المنصورة، وفى نبراته وطريقته بعض من سمات الإمام الشهيد، فكانت هذه الكلمات التى سجلتها فى يومياتى سنة ١٩٥١م. أنقلها كما هى دون تعديل أو إضافة.

رأيته..

أمامَهُ من القلوبِ ألفُ ألفِ تَسْمَعُ

رأيتُه كأنما يلحن الضياءَ والشفقْ

ويرسلُ النشيدَ من نياطِ قلبِه الكبيرْ

ترتيلةً من الذهبْ

قلْ يا إمامُ قُلْ...

وحينما سمعتُه يقولْ

«الله غايةُ الغاياتِ يا صحابْ»

رأيت فجرَ النورِ فى الأفقْ

وألفَ ألفِ محرابٍ يُسبِّحُ

وكلٌّ عينٍ فى الضياء تَسْبَحُ

والأرضَ -يا للأرضِ- أصبحتْ سماءْ

والليلَ فجرًا مائجًا بأقدسِ الأسماءْ

وبحرَ سرِّ الله . . لا يُحَدْ

الحىُّ، والقيومُ والجبارُ

والسميعُ والعليمُ والغفورُ والأحدْ . .

***

قلْ يا إمامنا حَسَنْ

فكلُّ ما تقوله حَسَنْ

«زعيمنا محمدٌ . . له الولاء

وغيرهُ فى عصرنا ادّعاءْ

وحبه فريضةٌ مؤكدة

صلى عليه اللهُ والملائكةْ»

وعندها . . رأيْتُه . . . محمدا

وراية «العُقابِ» تمخرُ

وتحتها جنوده- إذ يزحفون .

نحو بدر .

وكلهم يفْديه بالعيونِ والقلوبِ والوَلَدْ

وكلهم أسدْ

يقينه بالله لا يحده أمدْ
رأيتهم فى كرِّهمْ وكرهمْ
والكافرين فى انكسارهم وفَرّهمْ
وعندها.. رأيتها «العقاب»
فى ازدهائها العظيم تَبتسِمْ
«قد جاء نصر الله فاسجدوا
وهللوا.. وكبروه.. واحمدوا..»

***

قلْ يا إمامنا حسنْ
فكلٌّ ما تقوله حسنْ
وإنك البنَّاءُ فى السرَّاء والمحنْ
«الموتُ فى سبيل الله..
أسمى الأمنيات والمننْ
قد خاب قوم طلقوا الجهادَ والجِلادَ
واستجابوا للوهنْ»

***

ونلْتَ يا إمامنا العظيمَ ما اشتَهَيْتْ
إلى السماء - سيدى - قد ارتقيت
إلى جوار الله - سيدى - لقد علَوتْ

الشهيد على فراشه «مصطفى مشهور»(*)

فقيد الإسلام والأمة العربية والإسلامية

ورأيتُه - وهو المسَجَّى ساكنًا ... فى صَمْته - مَلَكا حواهُ سريرُ

وسألت: مات؟ فلم يجبنى من أسى ... أحد وقد علت الوجوهَ كسور

كررت سُؤلى: مات حقا؟ لم أجدْ ... إلا دموعا فى العيون تدور

وأعدت سُؤلى: كيف مات وبسمةٌ ... فى وجهه الهادى سنا وسرور؟

وأرى صفاءً، غامرًا فى سمْته ... وعليه من زَهْر الجنان عطور

والعهدُ فى كل الوجوه إذا قضى ... أصحابُها فيها الشحوبُ ستور

أيموت والأرض السليبة نهْبَةٌ ... والقدُس فى أيدى الكلاب أسير؟

أيموت والإسلام نهْبُ أسافل ... ويعيش مُغتربًا وليس مُجير؟

أيموت من أحيا القلوبَ بشِرعةٍ ... فُتحت بها مُدن وعز فقير؟

وهتفت فى أمل جريح ربما ... أخذته فيها غفوة وفتور

عما قليل بعدها ويقوم مِنْ ... غَفْو لينتصرَ الهدى والنور

وأفقتُ من غيبوبتى مستسلمًا ... فالموت حق حاسمٌ مقدور

.. والله قدّر إذ دعاك بأمره ... فأجبتَ داعى الله يا مشهور

(*) هو المرشد الخامس للإخوان المسلمين. تولى المرشدية ١٩٩٦. وتوفى فى ١٢ من رمضان ١٤٢٣ (١٧/١١/٢٠٠٢).

إنا إلـيــه راجـــعـــون فكلـنا للمـوت فى ظل الحـيـاة نسـيـر

***

في جمعة الأحزان: ماذا؟ ما أرى سـيـلاً من البـشـر الطهـور يمور

عجبًا، ولكن كيـف كيف تجمعوا عجبًـا!! وإن نشاطهم محظور؟!

لا تعـجـبوا: فـالله جـمَّع جُندَه والحظرُ مـــحظور هنا مـقـــهـور

والظالم البـاغِى ضـلالٌ سَـعـيُـه وعلـيـــه دائرة البــــوار تدور

هذى الجـحـافل فى الظلام منارة عجبًا!! أيحظر فى الظلام النور؟!

رفعوا المصـاحفَ فى الجنازة قرْبة فـتكاد فى أيدى الـشـبـاب تنيـر

ورأيت منهم ألـف ألفٍ مـوحِّـد من جندِ طه يقـودُهم مـشـهـور

عجبًا!! أفى الموتِ الصَّموتِ تقودهمْ مـثل الحيـاة وصَـفّـهمْ مبـرور؟

بالحب يا مـشهـورُ أنت تقـودهم وبذاك أنت على الـقلوب أمـيـر

والحب فى فن الـقـيـادة جـــامع والحـقـدُ فى كل الأمور يُضـيـر

بالحب قـاموا غـسّلوك ودمْعـهم ولأنتَ بالدمـع الطهـور جـــدير

ولو استطاعوا كـان قبرُك فـيـهمو وحَـوَتك منهـمْ أضلع وصـدور

حـملوك فوق أكـفهم ورءوسـهم والنعـش من فـرح يـكاد يطيـــر

إنْ كـانَ فى أرضِ الكـنانة مـأتم فـهناكَ فى عليـا الـسماء بـشيـر

يلقاك فـى سحر الجنان نعـيمُـها وقـصـــورُها وثمـارهـا والحـور

لكنَّ رضـوان الإله سنـامُـهـا … فـرضـاؤه لـلمـؤمنـين النور
يلقـاك فى شـم الجنان مـحـمـدٌ … يغـشـاه نور سـاطع وعـبـيـر
وصحـابة عاشـوا الجهاد فـدينهم … بجـهـادِهم ودمـائهم مـنصـور
يلقـاك سعـدٌ والحسين وجـعفـر … فى كل عصـر ذكرهم. . مـذكور

* * *

إن تلقـهُـم بلِّغـهُـمـو أنّا على … درب الشـريعـة دائـمًـا سنسيـر
وتركتَ جـيـلاً شِيـبُـه كشـبـابِه … عـزمًـا يحـار أمـامـه التـفكيـر
الله غـايتـهـم ونورُ قلوبـهم … وهمـو لشـرعتـه فـدًى ونصيـر
تخِـذوا كتـابَ الله دسـتورًا فـلا … يعلـوه قـانونٌ ولا دسـتـور
جعلوا الجـهادَ سبـيلهم فتقـدموا … ودمـاؤهُم فى الـنازلاتِ مُـهـور
عـنـد المـطامـع لا تـراهـم إنمـا … عند الـكوارث إنهم لـكثـيـر
يا سـيدى، ما قلـتُ غيرَ قـلائل … أمـا الـذى أغـفلتُـهُ. فـغـزير
مـهمـا ذكـرتُ محـاسنا ومـآثرا … فالـشعـر عجز شَـابَه التـقصـير
يكفـيكَ فى التـاريخ أنك مرشـد … يكفـيك أنك مـصطفى مـشهـور

الراحل من غير وداع:

المرشد محمد مأمون الهضيبى

تولى المرشدية بعد الأستاذ مشـهور. وتوفى صباح الجمعة ١٦ من ذى القـعدة ١٤٢٤. وللأسف أغـفلتـه وسائـل الإعلام، ومنع رجـال الأمن عشرات الآلاف من دخول القاهرة للعزاء.

هو الموت أعجـزَ طب الطبيبِ ... وفـاق بيـانَ الأديبِ الأريب

فلَلمـوتُ أوفَى بيان.. مـبينٍ ... بقـدْرةِ علامِ أخْـفى الغيـوب

قـضـاء إذا حُمَّ فضَّ الحـيـاة ... بسـهم قـوىٍّ عَدولٍ ضَـروبِ

فلا المالُ يحـمى الثرىَّ الأثيمَ ... ولا حـسبٌ منقذٌ لـلحسـيبِ

ولا الجاهُ يجديـه يومَ الحساب ... ويدفـعُ عنه ثِقـالَ الـذنوب

هو العــدل لا ينثنـى أو يميلُ ... بميـزان حقٍّ صـدوقٍ مُصـيبِ

***

ولكنْ فـزعنا بنـزفِ القلوب ... لفُـرْقـةِ قلبِ كـبيـرٍ حـبـيبِ

وكـان كطودٍ رفـيـعٍ مـهـيبٍ ... ففى جنة رحـبة يا «هضـيبى»

أفى كـلِ عـام لنـا مِـحـنةٌ ... فنُفـجعُ فى مـرشد بالمغـيب؟

مضى «مصطفى» فرفعتَ اللواءَ ... بعزمٍ قـديرٍ، وعقلٍ خـصيبِ

وقُدت المسـيرةَ لا الصفُّ هان ... ولا أضعفَـتكَ دواعى المشيبِ

فعشتَ المشـيبَ بروح الشباب ... دؤوبًا قـوىَّ السنا والشـبُـوب

بعـــزمٍ وفيٍّ، وقلب فـــتىٍّ		وفكرٍ مُـــضـىء ثرىٍّ نجـــيبِ
وكنتَ الصمودَ الذى لا يهونُ		بليلٍ ظلـومٍ، ويوم عـصـيبِ
وناديتَ «عيشوا شموخَ الجبال»		فما كان منا سـوى المستجيبِ
وقلتَ «هو النصرُ لا يُستحقُّ		بغيـرِ الثبات وتـقوى القلوب
هو الخـيـرُ باقٍ لـيـوم المعـادِ		فعيشوا الحيـاةَ لخير الشعوبِ»
رحـلـتَ بـــدونِ وداعٍ؛ لـذَا		حنايا القلوب لظى من نَحيبِ
فهـذى حشود تلـيها حـشودٌ		وقد رُوِّعتْ من شبابٍ وشيبِ
لتنْعـاك، لا بالدمـوع الغـزار		ولكنْ بـأكـبـــادها والـقلوبِ
وقد كنتَ حشـدًا قوىَّ اليقينِ		بدينٍ مـتينٍ وضـىءٍ مـهـيب
بدينٍ على الحـقّ والحب قـام		ودولةِ عـــدلٍ وعلمٍ رحـــيبِ
بهـا الحكـم شـورى وحـريةٌ		وأمْنٍ بعـيشٍ كـريمٍ خصـيبِ

* * *

أعدْتَ أباك «الهضيبى» الكبيرَ		بعلمٍ وصـدق وجهـد صليب
فـقد كـان طَودًا أشمَّ العـلاء		وما اهتزَّ يومًا لعصف الهُبوب
ولا هاب يومًـا نبـاحَ الكلاب		ولا أفـزعـتْه حـدادُ النيـوب
وقـال «دعـاةٌ ولسنا قـضـاةٌ»		ومـرجــعنا للإله الحـــسيب
فسرت على الدرب «مأمونها»		ودربُك يـزرى بكـل الدروب
علـيـــه منـارةُ قـــرآنـنا		وسنةُ طه الرســول الحـبـيب

* * *

أمامونُ، «لا تأسَ إذ جـمَّعوا		جـيوشًـا كأنا «بأمّ الحـروب»

أهابوكَ حيًّا وخافوك مَيْتًا بفرض حصار دميم عجيب؟
وقالوا: «هو الحظر باسم النظام» فواخيْبَتَا للنظام المريب!!
نظامٌ يقوم على المخزيات وليس به غير إفكٍ كَذوب
وشتان بين نظام طغَى بحظْر وسجن وأنياب ذِيب
ودعوةِ حقٍ وعدلٍ ونورٍ من الله تزرى بكل الخطوب
وإن الجسومَ إذا حوصرت فمَن ذا سيحظر نبْضَ القلوب؟

***

«أمأمون» عفوًا، فقد أغفلوك لحقدٍ مرير أثيم غريب
فإعلامهم لم يُشِرْ من بعيدٍ ليومِ رحيلك أو من قريب
مخافةَ أن يُغضبوا الحاكمين فيُحرمَ ناشرُهم من «نصيب»
وصُحْفُهمُو تنشر الموبقات وأنباءَ راقصةٍ أو لَعوب
ويُغْنيك عنهم صحافُ الخلودِ وذكرُك فيها بنورٍ وطيب
وحظك فى صفحات القلوب كمثل الربيع الشذىِّ القشيب
لقد راع فقدُك كلَّ الشعوبِ ففى جنةٍ رحبةٍ يا «هضيبى»

***

من معانى الكلمات:

حُمَّ: نزل.. الشبوب: التوهج.. الطود: الجبل.. حداد النيوب: الأنياب الحادة.

«دعاة لا قضاة»: كتاب للمرشد حسن الهضيبى. لا تأس: لا تحزن.

الشذى: طيب الرائحة.

القشيب: اليانع المتجدد.

أحمد ياسين شيخ المجاهدين

قمْ عَطِّر الفجرَ بالإسراَ وياسينا

ورتِّل الفتحَ والأنفالَ والتينا

وعانق الفجرَ فى شوقٍ وفى لَهَفٍ

واكتبْ على الشفقِ الوردىِّ «ياسينا»

واجعلْ مدادك من ماءِ القلوبِ وصُغْ

حروفَ «ياسينَ» ريحانًا ويسْمينا

وأطِّر اللوحةَ الشمّاء مِنْ مُهَجٍ

تَزينُها وبنورٍ مِنْ مآقينَا

***

«أحمدْ يسينُ» سَمِىُّ المصطفى شَرُفتْ

به العروبةُ، واخضرَّتْ بَوَادينا

شيخٌ قعيدٌ وفى الإيمانِ قوتُهُ

لم يعرف العجزَ والإذعانَ واللِّينا

يحققُ النصرَ من «كُرسيِّه» أبدا

فأينَ منه «كراسٍ» حكَّمتْ فينا؟!

عـــــــروشُ ظـلـمٍ تـولاهـا أبـاطِـرَةٌ

على الـهـزيـمـة مــا زالُوا مُــقــيــمــينا

***

تفْـديكَ - يا سـيدى - الدنيـا ومـا جَمَـعتْ

وصـــفـــوةُ الناسِ مـن قـــومى وأهليـنا

لانتْ عِـظامُـك يا «يـاســــين» مـن هَرَمٍ

ومِنْ جــهـــادٍ عـلى درْب النبـــيـــينا

فـــخـــذْ لـعظْمِـكَ عَظْمى كـىْ تشـــدَّ بِهِ

عَظْمًـــا وَهَى منـكَ حـتى تـأسُـــوَ اللِّينا

ولو قـــبلتَ دمـــائى سقْـــتُـــهـــا مَــدَدا

تنســـابُ فـى جـــسْـمِكَ الوانى شــرايـينا

لانـتْ عـظـامُـك، لـكـنْ لـم تـلـنْ أبـدا

قناةُ عـــزْمِك فى لُـقْـــيــــا أعـــادينا

وابْيضَّ شَــعْـــرك لكن قـــد جـــعلـتَ لهمْ

من الـنهـــارِ ســـوادًا حـــالـكًا. . طِـينا

فـــمــــا وهنْتَ بســـجنٍ ســـاومـــوكَ بِهِ

ومـــا اســـتـجـبْتَ لهم كـى تقـبـلَ الدونا

فعشتَ فيه مَهيبًا شامخًا أبدًا
وكنتَ سجّانَهم إذ كنتَ مسْجونا
يخشوْن طيفَكَ فى الأحلامِ يُفْزِعهم
حتى غدا ليلهُم بالسُّهدِ مشْحونا
همْ أحرصُ الناسِ من جبنٍ ومن ضعَةٍ
على حياةٍ، ولو ذاقوا بها الهُونا

***

سمعتُ صوتَك فى طنطا يُشنِّفنا
عَبْرَ الأثير.. كنورٍ قدْ سَرَى فينا:[1]
«يا أهلَ مصرَ -وفى الذكرى لنا عبرٌ-
فلْتذْكرونا، ولا تنسوْا فلسطينا
إنّا على العهدِ ما جفتْ عزائمنا
عن الجهادِ، ولا كلَّتْ أيادينا»
فهز صوتُك منا كلَّ خالجةٍ
وأصبحَ الألفُ والألفان مليونا

(١) كان ذلك فى احتفال نقابى بيوم الأقصى فى مدينة طنطا بمصر حضره عشرون ألفًا وقد استمع الحاضرون لخطاب للشيخ أحمد ياسين عن طريق الهاتف الجوال «المحمول» بعد تكبير الصوت بالميكروفون.

لا بل مـــلايين ذابتْ فـى مـــحـــبـــتكمْ

من الصـــعـــيـــدِ تحـــيكم إلى ســـينا

***

ها همْ أســودُك يا ياســينُ قــد نهـضُــوا

يفْــدُون مَــسْــرى رســولِ الله والـدينا

هُمُــو «حــمــاسٌ» بروح الله قــد زحــفـوا

«لبــيكَ لبــيكَ يـا أقــصى لقــدْ جِــينا»

فـامْـضِى حـمـاسُ بخيلِ الله واقـتـحـمى

فلَنْ يـعــيــدَ الحـــمى إلا المضــحّــونا

امضى سـعيرًا، وخـوضى الهول، وانتـصرى

فـــالنصـــرُ حقٌ لمن بـاللهِ يمـــضـــونا

ولتـزرعى الرّعبَ جـمـرًا فى مـضـاجـعـهمْ

حـتى يـعـيـشُــوا حـيـارى.. لا ينـامـونا

يا فـــتـــيـــة رصـــدُوا للـهِ أنفـسَـــهمْ

فـــبـــايعـــوا ربّهـمْ غُــرًا.. مَــيــامــينا

قـــالُوا: «الجـــهـــادُ ســبــيلٌ لا بـديلَ له

والموتُ فـى اللهِ مـن أسْـــمَــى أمـــانيـنا»

هانتْ جسـومُـهـمُـو فى اللهِ فـانـطلقـوا

وفــجَّــروها. . براكــينًا. . بـراكــينا

فــمـادت الأرضُ حــتى غُصّ جــانبُـهــا

بما تمـزّقَ من أبـناء صـــهـــيـــونا

فــمـا عليــهـا ســوَى أشـلاءِ مَـنْ هتكوا

عِــرْض الـطهـــارةِ والأوطـان باغـــينا

أمــا الـشــهــيــدُ فــفى الجنَّاتِ مـنزلهُ

طوبَى لـه حــين يلـقَى حُــورَها العــينا!

***

يا أحــمـدَ المجــدِ يا ياســينُ. . مـعْــذرةً

فــالقلـبُ من حُــزنِه قــد باتَ مـطْعــونا

فلتــعْفُ عـنا. . فــإنَّ العــفــوَ مكرمــةٌ

لما بَـدَا منْ قـــصـــورٍ مـــؤسفٍ فــينا

فـــقـــد بُـلينـا بحكـامٍ غـــدَوْا أُسُـــدًا

على الـشــعـوب، نـعــامًـا فـى أعــادينا

الآمـــــرون بـلا أمــــــرٍ يُـطـاعُ لهـمْ

فــالأمــرُ أضْــحى لأمْــريـكا وشــارونا

لاتذكرنّ بهم إلا جبابرةً

من البغاةِ كفرعونٍ.. وقارونا

قد أنكروا الحقَّ والأجدادَ من سَفَهٍ

وحقَّروا عيْنَ جالوتٍ.. وحطينا

واستعبدوا الشعبَ واجتاحوا كرامته

وصادرُوا الفكرَ، واغتالُوا القوانينا

ثم ازدَهَوا ببطولاتٍ مزيفةٍ

بها انتكسْنا وعشنا في مآسينا

قالوا: «السياسةُ فنٌّ نحن سادتُه

وقدْ صنعنا لنا منها أفانينا»

قالوا: «الزعامةُ فينا» قلتُ: «ويلكمو

سُحْقًا لذئبٍ غدا بالنابِ راعينا»

فانهضْ «يسينُ» وعلّمهم.. فقد جهلوا

أنَّ الزعامةَ ليستْ لهْوَ لاهينا

أنَّ الزعامةَ إصرارٌ بلا وَهَنٍ..

لا أن تكون بما جمَّعْتَ مفتونا

أنَّ الزعامةَ إيمانٌ.. وتضحيةٌ

وقدْوةٌ بكتابِ الله تَهدينا

أنَّ الزعامةَ إيثارٌ.. ومرحمةٌ

وأنْ تجوع لكيْ تقْرى المساكينا[1]

***

«أحمدْ يسينُ» وأنتَ اليومَ مفخرةٌ

يشدُو بها اليومَ دانينا وقاصِينا

أنتَ الزعيمُ بحقٌ لا الألى فرضوا

زعامةَ القهرِ تُغْمينا وتُردينا

فالكلُّ مِن ظلمهم قد بات مغتربًا

والحرُّ فى أرضه قد عاشَ مطحونا

ولا كرامةَ إلا للألَى سجدوا

وهلّلوا للزعيم «الأنسِ» آمينا

أنتَ الزعيمُ بحق لا الألى خنعوا

وسلموا الأرض منكوسين راضينا

قالوا: «الدنيةُ خيرٌ من مُنًى بَعُدتْ

منَالُها مستحيلٌ أنْ يُدانينا

(١) تقرى: تطعم، والقِرَى (بكسر القاف وفتح الراء): الطعام الذى يُقدَّم للضيف.

مــقـــابلُ السلْم أرضٌ كـىْ نقــيمَ بـهـــا»

فـــمـــا رأيْنا لـهمْ فى الأرض تمـكينا

واسـتــمـرءُوا الذلَّ فى ضـعـفٍ وفى خـورٍ

وآثــرُوا أن يـكــونُــوا فــى الأذلـيــنــا

يا ليــتـهـم نهـجـوا نهــجًا دعــوتَ له

إذنْ لعـــزُّوا، وكـانَ النـصـرُ مــضـمــونا

لكـنهـم آثروا الدنـيـــا وزينتـــهـــا

ولْيــأكُـل الشـعبُ زقُّــومًــا وغِــسْلـينا

اتركـــهُـمُـــو لمصيــرٍ سوفَ يَبْــغـتُـــهمْ

يأتـى عليـــهم ولو كـــانوا شــيــاطيـنا

واللهُ إذْ مــا يشــأ تنفُــذْ مــشــيـئــتُــهُ

فـــأمــرُه لـيس يعـــدو «الكافَ والنـونا»

هذا نـذير قـــضـــــاء لا مــــرد له

«خـاب الذين افـتـروا واسـتـبـعـدوا الدينا»

***

يا سـيــدى، وعـبـيــرُ الفـجـرِ يغْـــمـرنا

وقـــد كـــتـــبْـنا على الآفـــاق «ياســـينا»

فـانسـابَ منهـا تـبـاشـيـرٌ تنـاجـينا

وتجـعلُ الجـذبَ -مِنْ حبٍّ- بسـاتيـنا

إنى أرى الـنصـرَ من قـربٍ يـناديـنا

واللـهُ ناصـرُنا، لا عـبـدَ يخـزيـنا

***

نظمتُ ذلـك من عـامـين قـد مـضـيـا

واليـوم صـرتَ شـهـيـدًا فى أراضـينا

ودَّعتَ دنيـاك والمحـرابَ مبـتـسـمًا

وأنت تمـضى إلى الجـنات مـيـمـونا

غـالوك بالغـدرِ -لا تعـجب- فـقـد جُـبلوا

على الـنذالة فـاغـتـالوا النبـيِّـينا

***

حكامـنا يا نشـامى العـار واأسـفـا!

بُوءوا بـدمٍ يسـين مـثـل شـارونا

هنـتمْ وخنتـم وسـالمتم عـدوَّكـمـو

وصـار ظلمـكمـو طبـعًـا.. وقـانونا

واليـــوم نَنْـعَى إلى الدنـيــا رجـــولتـكم

ومـــا اســتـحــقتْ مـن الأشــعــار تأبـينا

فــوحــدوا الزيَّ فى جلســات قــمــتكم

حــتـى تغــيظوا به أبنـاء صــهـيــونا

فـــوحـــدة الزيِّ رمـــز من تـوحـــدكم

هيــا ارتدوه فـــســـاتينًا فـــســـاتينا

***

ياسين فى موكب الملائكة

قُضِيَ الأمرُ. لا يُرد قضاءُ

فَهُو اللّهُ فاعلٌ ما يشاءُ

لو يعيد البكاءُ من قد فقدنا

لبكينا حتى يجفَّ البكاءُ

لستُ أرثى ياسينَ فهْو علاءٌ

شامخ عزَّ أن يَفيه رثاءُ

عن مداه كم يعجزُ البلَغاء

ومن العجز يلهثُ الشعراءُ

قد أضاء المحرابَ فى الفجر بالفجْـ

ـرِ وباحتْ بعطرها «الإسراءُ»

ثم كان الرحيلُ دون وداعٍ

قُضِى الأمرُ، لا يُرد قضاءُ

***

طائرٌ أسودٌ خفىٌّ عتىٌّ

بخداعٍ قد خطَّه اللؤَماءُ

نفث النار غادرًا ثم ولّى
فطوته الآماد والظلماءُ

وكأنى بنفخة الصور دوّتْ
مادت الأرضُ إثرها والفضاءُ

أينَ أهلُ المحراب - يا فجر - فيهم
أحمدُ الحقِّ، مَنْ به يُستضاءُ؟

أينَ رمزُ النضال فى الأرض ويحى!
أين مَنْ باسمِه تسامَى الفداءُ؟

أين وجهٌ سُداه عزمٌ ونورٌ
نبوىٌّ، وجبهةٌ شمّاءُ؟

ما اعتراها من البلاءِ هوانٌ
أو طواها لغير ربى انحناءُ

أين رأسٌ قد كان كنزًا ثريًا
فيه فقهٌ وحكمةٌ سمْحاءُ؟

أين عينان فيهما ومْضةُ الحقِّ
ومِنْ خشيةِ الإلهِ بكاءُ؟

أين فينا لسانُك العطر يتلو
سورةَ الفجر شعّ منها الضياءُ؟

أين قلبٌ قد كان بالذكر حيًّا

مِلْؤه النورُ والتُّقَى والمضاءُ؟

يا إلهي لم يبْقَ إلا بقايا

من عظامٍ تلبّستْها الدماءُ

***

لحظاتٌ وانجابَ فيها العَماء

وتولَّتْ عن أفقِها الظلْماءُ

فإذا الأرضُ مُثْل عرسٍ تجلّى

وإذا الجدْبُ جنة فيْحاءُ

وإذا الريح بسمةٌ من صفاءٍ

وإذا الأُفق روضةٌ غنّاءُ

هى روح الربيع فى الكون دبَّتْ

فهْوَ سحرٌ وفتنةٌ حسْناءُ

وتنسمت ريحَ مِسكٍ طهورٍ

عبقرى الشذا حَبَتْهُ الدماءُ

ورأيتُ الشهيدَ ياسينَ يرقى

لسماءٍ ما طاولتْها سماءُ

«فإلى أينَ أنت ماضٍ سعيدا

وحواليك هالةٌ بيضاءُ

موكبٌ من ملائكِ اللّه تشدو

وعلى الأُفق من بَهَاها بهاءُ»؟

قال: «قد فزتُ بالشهادة إنى

عشتُ عمرى وهيَ المنى والرجاءُ»

قلتُ: «خذنى إلى مداك شهيدًا

حيث أنتم فى جنةٍ أحياءُ

تُرزقون الرضاءَ زادًا وريًّا

حيثُ نعمى مبرورةٌ وسناءُ»

قال: «عيشوا وبالجهاد تصدّوْا

فَهُو النصرُ حين ربى يشاءُ

واطلبوا الموتَ دون خوف وجبن

فهْو درْب قد خطّه الشرفَاءُ

لن يُزالَ الهوانُ إلا بعزمٍ

أوْ يعيدَ الحقوقَ إلا الدماءُ

إنّ من يترك الجهادَ ذليلٌ

وخسيسٌ. فقل: عليه العفاءُ»

***

يا نبيَّ الجهادِ، ياخاتم الرُسْـ
ـلِ، ويا صدّيقون، يا شهداءُ
قد أتاكم ياسين فى جنة الخُلْـ
ـدِ وفاءً لكم، فنعم الوفاءُ!
هزه الشوقُ للشهادة حتى
عاش فى الشوق صبحُه والمساءُ
«يا عظيم الجلال فلْترضَ عنّى
ليسَ بعد الرضاءِ منك رضاءُ»
كم دعا اللّه أن يموت شهيدًا!
فقضَى اللّه أن يجاب الدعاءُ

***

لا تلوموا شارون فهو عدوٌ
وعلى الغدْر طُبِّع الأعداءُ
لا تلوموه - يا كبارُ - فأنتمْ
- دونَ أن تشعروا - له شركاءُ
أين - لا أين - كنتمو يومَ غالُوا
رَجلاً أمّةً به يُستضاءُ؟

اتفـــقـــتم على الخــــلاف وهـجـــتم

وانصـــرفـــتم وصـــمْـتكم ضــوضـــاءُ

غـــيـــر أنى أقـــول: قـــمـــتم وثرتم

ولكـم غـــضـــبـــةٌ وفـــيكـم «إباءُ»

فـــشـــجـــبـــتم جـــريمةَ القـــومِ حـــتى

كـــان لـلشـــجْـبِ فى الدُّنـى أصـــداءُ

وأذعـــتُـمْ من الإدانـات ألـفًـــا

حَـــمَلَتْـــهـا - وضـــجَّت - الأنبـــاءُ

تلـك منـكمْ بـطولة يـعـــجـــز الأطـ

ـفـــالُ أن يأتوا مـــثـلَهـــا والنســـاءُ

***

قـــد يقـــولون: «ألف عـــرش فـــداهُ»

قلت: «بـخْـسًـا، وكـيف هان الفـداءُ؟»

«إنما الـعـــدلُ قـــولنا ألفُ عـــرشٍ

كفْءُ نـعليـــهِ. ذاك حـــقًـــا كِـفــاءُ»

إن يـاسين كـــان أمـــةَ عـــزمٍ

ونضـــالٍ لا يعـــتـــريه انتـــهـــاءُ

وغـــدًا تـندكّ الـعـــروش وتـغـــدو

كلّ تـيــجــانِهم عليــهـــا العــفـــاءُ

وشـــهـــيــدُ المحــراب والفـــجــرِ باقٍ

مـــــثلَ نـورٍ لا يعــــتـــريـه الفناءُ

***

يا كـــبــــارًا ولـسْـتُـــمـــو بـكبـــار

إن بالـعـــــقل يُـعـــرف الـكبـــــراءُ

كم كـــبـــيــــرٍ فـى بَوْلِه راح يـحـــبـــو

زعَّــمـــتْــــهُ الأنطـاع والأغـــبـــيـــاءُ

وصــغـيـــرٍ قـــد عظَّمـتــه المعــالى

عـــزمــــةٌ حـــرة نَـمَـــاهـا الإباءُ

يا كـــبــــار المقـــام هُنتم وبعـــتم

لم يعـــدْ للشـــعـــوب فـــيكم رجـــاءُ

فـــالذى باع شـــعـــبـــه مـــســتــهـــينًا

هو والـغـــــاصبُ الـعـــدوُّ ســـــواءُ

هل أمـنتــم مكر الـيـــهـــود إذا مــــا

أنكـروكم، وحلّت البـــغـــضــــاءُ؟!

فـاحـذروهـم إن فـاجـأوكم نـيـامـا

في هنـاءِ فَـلاتَ حـين نجـاءُ

لـستُ أدرى مـا يـفـعلـون ولكـنْ

يمسك البـوحَ عن لسـانى الحـيـاءُ

من يَـهُنْ يـسـهل الهـوانُ عـليـه

مـا لجـرحٍ بميـت ضـرّاءُ

***

فى ذمة الله يا رنتيسى

بنفـــوسٍ مـــبــــرورةٍ ونفـــيسٍ

كلُّنا فـى فـــداكَ يا «رنتـــيــــسى»

طبتَ حـيًّـا ومـيِّـتًـا وحـبـيـبًـا

يا شـــهـــيـدًا مـــشْـواه كلُّ النـفـوس

قـــد رفـــعتَ اللواءَ مـن بعـــد ياســـيـ

ـنَ بـعـــزم حـــمـــاهُ منْ تـنْكيس

وكـــأنى «بمـؤتةٍ» قـــد تـبـــدَّتْ

وكـــأنى «بـجـــعـــفــرٍ» فى الوطـيس

إن تـكُنْ قـــد رحلـتَ بـالموتِ عنـا

فلِمَـــرْقَـى كـمـثـل مـرقى الشـمـوس

قـــد وصلـتَ ياســـينَ فى جـنة الخلْـ

ـدِ، فـأضـحـى ياســينُ خـيـــرَ أنيسٍ

فى نـعـــيمٍ بـحـــور عـيـــن عـــذارَى

ورضــــاءٍ مـن ربنـا الـقـــدّوس

لـكـم المجـــــدُ والخـلـود، ولـلأنـ

ـكاسِ خـزْىٌ وشَـــر عـــيـشٍ بئـــيس

***

فـغـــايتكم هـى اللهُ
وعـــشــتمْ فى عـطاياه
وكـان دعـاؤكم دوْمـا:
أيـــا ربـــاهُ.. ربـــاهُ
وقـدوتكم رســول اللـ
ـه. يا أعْظِمْ بـتـقـواه!
ودســـتـــور هو القـــرآ
ن بـالأنوارِ جـــــلاه
وجـــالدْتم وجـــاهدتم
جـــهـــادًا باركَ الـلهُ
ليـبـقى القـدس لا يَعْنو
بصـــخـرتـه وأقـصـــاه
ولســـتـــم أنتم الـرامى
بـل الـرامى هـو الـلـهُ

***

ويح قـلبـى فى ظلِّ حـكمٍ خـــــــيسِ
مـن بُـغــــــاةٍ، ومـن بنـى إبـلـيـسِ
من زعـــيم مـــهــمَّشٍ مـــزعـــومٍ
وزعـــيم مـــهـــرج مـــهْـــووس

وزعيم طَغَى وأفسد، ينوى
يورث الحكمَ لابنِه «المحروس»
لا ترى منه غير كذْب وزورٍ
وخداع منمّق .. ونحُوس
وعروش بالتْ عليها الأعادى
ما عليها سوى غبىٍّ مَسوسِ
همْ أسودٌ على الشعوب ضوارٍ
ونعامٌ مع العدو الخسيس
قد غَدوْا فى الشعوب أضحوكةً شا
عتْ، ورمزَ التخلفِ المنكوس
وأبوهمْ فى عرشه المتعالى
فى «أمِرْكا»، ما غيرُه من رئيس
وبعقل مشوَّشٍ ملحوسِ
وبقلب مبدَّدٍ مطموسِ
يدّعى العدْلَ والحيادَ ويمضى
فى ركاب اليهود بالتدليس
وَوَشنْطُنْ قد أصبحت كعبة القصـ
ـاد منكم، وبوشُ كالقديس

واستقر الولاء للأمْرِكان

بعد أن كان فترة للروس

لا تسلْهم عن عِزة وكيانِ

في المخازى مستغرقٍ مغموس

***

وعشنا تحت أمرتهمْ

كمنْ فى القيد رجلاه

يسود حياتنا قهرٌ

وإذلالٌ وإكراهُ

وأوجاع وآلامٌ

وآهٌ.. تِلْوها آهُ

ومن يتصدَّ معترضًا

فإن القبرَ مثواه

فهمُّ الحاكم الكرسىّ

والسلطان والجاهُ

بلا عقل ولا خُلقٍ

فحب المال أعماه

ألا قد خابَ من يحيا

لشهوته ودنياهُ

***

يا كبارَ المقامِ ضِعتم مقامًا

إذ هويْتم إلى الهوانِ الخسيسِ

أين «أُسْلو»، وأين «مدريد»، والشرْ

مُ، وباقى خيابةِ المتعوس؟

اعتززتم بها، وكانتْ سرابًا

منكرين «ياسين» و«الرنتيسى»

قد أمنتمْ لعهدهم - من غباءٍ -

كيف ترعى الذئابُ أمْن التيوس؟!

وعجزتمْ عن قمة تجمعُ الشمْـ

ـلَ كيانا فى الحاضرِ الموكوس

واختلفتم من قبلُ خُلفا مَهينا

وتشاتمتمْ فى اجتماع عبوس

خبّرونى: ما تفعلون إذا ما

أرغموكم على القتالِ الضروس؟

***

قــتــال طــائلٍ عــاتِ
ســعيــرُ الحــقــد لظّاه
يســوق الموتَ فــى نَهَمٍ
يمـــزقُ مــن تحـــداه
ويزحف حـيثـما يبـغى
وكلكمـــو ضـحـاياهُ..
وينشـئ دولة كـبـرى
تحـــقــق مـــا تمـناهُ
وأنتم فى عـــمـــيق النو
مِ شــاغلكم هو الجــاه
ومــال مــا له حــدٌّ..
كــبـــحـــر تــاه شطاه
وكل شـعـوبكم طُحنتْ
بظـلم قـــــد لـعنّـاه

***

لـم تكـونوا رعـــــاتهــــا إنمـا كنْـ
تم عليــــهــا كنـارِ حــرب البـــسـوسِ
فـــســجـــونٌ مــوصــولةٌ بــسـجــون
وســـيـــاط كم أزهـقت من نـفـــوسِ!

وحـــــبـــــال منهـــــا الرءوسُ تـدلّتْ

آثرت بالـشـــمـــوخ مَـــثْـوى الـرمـــوس

والطريـق المضـــمـــون «سِــفْـــر نفــاقٍ»

لضـــــمـــــان المـرءوس قلـبَ الرئـيس

والضـــمـــيـــر المـنيعُ صـــار يـبـــابا

يُشــتـرى الـيـوم بالـرخـيص الـبـخـيس

وسـقـــيـــتـمْ شـــعـــوبكم من مَـــرارِ

فى كـــئـــوسٍ تـدور إثْرَ كـــئـــوس

وكــــسـرتم شـــعـــوبكم فَـــهُـــزِمـتم

مـــن طـريـــدٍ مـــن الـدُّنـــا مـــكـنـــوس

ثم صــــــرتم للأمْـــــرِكـــــان مطـايا

وقـــتلـتـم ياســـينَ والرنـتـــيـــســـى

فـــــأريحـــــوا خـــــلائق الأرض منـكم

وارحــلـوا عــنــا يـابـنــى إبـلـيـــس

الأنكاس: الأنذال، جمع نِكس.
نحوس : جمع نحس.
يعنو: يذل.
الرموس: القبور.

ذكرَى عُمر المختار (البطل الليبى)

لا تذْكـرَنَّ فيـالقًا مِنْ تغلبٍ وفوارسًـا من عبسٍ أو ذُبـيانِ

دعْ عنكَ «هوميرًا» ودعْ طِرْوادةً وخـوارق اليـونانِ والرومـانِ

وانظرْ لمنْ صاغَ البطولةَ فى الوغى بعـزيـمـةٍ عـمـريـةِ الإيقـانِ

انظرْ ليُنْسـيَـكَ الملاحمَ كلَّهـا رجلٌ تحـدَّى سطوةَ الـطّلْيـانِ

عمرَ الجهادِ، وفى الجهادِ همومُه قهرَ «الفَشِـسْت» بقوة الإيمان

قدْ مرَّغ «الدُّتْشى» وروما فى الهوا ن و«جرْزيانى» قـائدَ العدوانِ

شيخٌ طعينُ السنِّ، لكنْ عزمُهُ أقْـوى من الفُـولاذِ والصَّـوَّانِ

كمْ ساوموه لينحنى مُـسْتسلمًا ويعيش فى أمْنٍ وفـى اطمئنانِ

أغْروْهُ بالمال الكثيفِ ومنصبٍ يعْلو على كـلِّ المناصبِ هانى

فأبَى الدنيةَ والرضوخَ لعرضهمْ ومـعيـشـة الأنعامِ والإذعـان

فـالمسلمُ الحقُّ الأشمُّ جـبـينهُ يعلُو على الأهـواءِ والسلطانِ

والمالُ والسـلطانُ من مـنظوره عرَضٌ حـقيـرٌ، بل غثـاءٌ فانِ

وجهادُهُ للحقِّ حـتى لو قَضَى أو عاشَ طول العمرِ فى حرمان

***

ذكْرَى شـهادتِك الأبيَّـة بالسَّنَا حلَّتْ لتشـرقَ فوق كلِّ مكانِ

مِنْ بعـد حكمٍ غاشمٍ مُتَـعَنِّتٍ أمـا المحاكمُ فـهْو لصٌّ جـانِ
سبعون قدْ مرّتْ وذكرُك خالدٌ مـتـعطرٌ بالروْحِ والريـحـان
دعْنى أعـانق عطرَهُ وضيـاءَهُ فى لهـفـةِ المشتـاق والولْهـانِ
فالشوقُ فى قلـبى قوىٌّ حائرٌ بين الرجـاء وسطوة الأحـزان

***

اليومَ فى الذكرى أراك حـقيقةً رأْىَ العيـانِ بحسِّىَ الإيـمانى
أسدًا وحولك مثلُ جندِ محمدٍ يتـسـابقـون لجنَّة الرضـوان
اللهُ أكبـرُ، إننى . . أحيـاهمُو فى «برقة» بالـقلبِ والوجدان
عاشوا النهارَ فـوارسًا مرهوبةً وهُمُو بجوفِ اللـيل كالرهبان
عزمٌ حـديدٌ فى لقاءِ عـدوهمْ تهـتـز منـه جـوانبُ الميـدان
أما مـحاريبُ التُّقى فـملاذُهُمْ ودموعُـهم فيـها كـما الهـتّانِ
ويرفّ فوق رءوسهِمْ نورُ الضحى والفـجر والأنفـالِ والرحـمن
والذارياتِ ويوسفٍ ومـحمـدٍ والنورِ والفـرقـانِ والإنسـانِ

***

تَخذُوا الكهوفَ معاقلاً ومرابضًا ومنَ السفوحِ الداميات مغانى
إنى أراهمْ فى الأعـالى جنَّةً أو سـيلَ نارٍ حـطَّ فى الوديان
حتى إذا «المختار» صاحَ: «تقدموا» سبـقتْ قُلوبُهمُـو إلى النيرانِ

يتكلمون بنادقًا وقذائفًا … وكأنهمْ وُلِدُوا بغيرِ لسانِ
ومنَ السكوتِ بلاغةٌ عُلْويةٌ … تتجاوزُ الآمادَ من سَحْبانِ
كانوا هنا، صاروا هناك. تقحَّمُوا … وتمكنوا، وتحققَ النصرانِ:
نصرٌ لدينِ اللهِ والوطنِ الذى … نهبتْه عصبةُ غادرٍ ثعبانِ
ولأنَّ قهرَ النفس فى نزواتها … بعزيمةِ الإيمانِ نصرٌ ثانِ
حربُ الجيوش سبيلها معروفة … لكنَّ أخطرَها هوى الإنسانِ
فإذا تنازعه الهوى ومفاتن الدنـ … ـيا غَدَا فى زمرةِ الشيطانِ
بذلوا دماهمْ عن رضًى وعقيدةٍ … للهِ والضعفاءِ والولدانِ
هتفوا: «الجهادُ سبيلُنا» وتقدموا … ما انتابهم فَزَعٌ من النيرانِ
فزعٌ؟ وأنَّى يفزعون وهمْ لها … بأسٌ وعزمٌ قُدَّ من صوَّانِ
صدقوا مع اللهِ الوعودَ وجاهدُوا … فإذا همُو فى الحرب موتٌ قانِ

***

اللهُ أكبر، إننى أحياهمو … فى زحْفِهمْ.. بالقلبِ والوجدانِ
بعثوا من الماضى التليد شوامخا … ومَحَوْا حدودَ الأرضِ والأزمانِ
فكأنَّ «بدرا» قد أعيدت حيةً … فى عزةٍ يوم الْتَقَى الجمعانِ
وهوَتْ رءوسُ الكفر وهْى ذليلةٌ … وعلتْ عليها رايةُ القرآنِ
هذا هو الماضى الجليلُ بمجدهِ … أحياهُ «مختارٌ» عظيمُ الشانِ

لكن حاضر أمتي -واحسرتا- أضحى أسير مذلة وهوان

وتمزقتها فُرْقَةٌ ملعونةٌ.. ما حققتْ منها سوَى الخُسْرانِ

يا أمة العُرْبِ النيامِ ألا اسمعوا عُمَرًا يقول لكم بألفِ لسانِ:

هلاّ توحَّد جمعكم.. كمحمد.. وصحابه في بيعةِ الرضوان؟

فالمسلمون -كما يقول نبينا- لن يسلموا من ضيعةٍ وهوان

إلا إذا وقفوا بوجهِ عدوِّهم صفا تَلاَحُمُه كما البنيان

وبَنَوْا علائقَهم على نورِ التُّقَى في وحدةٍ كالجسم للإنسان

إذْ مَا تشكَّى منهُ عضوٌ واحدٌ سهرتْ له الأعضاءُ في الجُسْمان

أيوحِّدُ الإلحادُ صفَّ عدوكمْ عجبا!! وتفترقون.. بالإيمان

مِنْ بعد ما كنتمْ كيانًا رائعًا ذا وحدةٍ كالجسم للإنسان

هذا كتابُ الله فاعتصموا بهِ هو حبلُ ربّى خالق الأكوان

ومن استعانَ بغيرِهِ فقد الخطى في دربِ ذلٍّ خانعٍ خَسْرَانِ

ألقاها الشاعر في «رابطة الأدب الحديث بالقاهرة»

بمناسبة الاحتفال بذكرى استشهاد عمر المختار

«جَوْهر دُودَاييف» سيفُ الله الشهيد

بعد انهيار الاتحاد السوفيـتى سنة ١٩٩١ أعلن الشيشان استقلال بلادهم بقيادته، ودارت الحرب، ومازالت مشتعلة حتى الآن، وكان بارعًا فى القتال والتخطيط واستشهد نتيجة عملية اغتيال فى ٢١/ ٤/ ١٩٩٦ بهاتف جوال.

قُضِى الأمرُ، فاهْدَئى يا حُتوفُ ... وَدَّعَ الأرضَ للعـــلا دُودَيفُ

مُصْعِدًا، مُصعدًا إلى النور يعْلُو ... فَهْـو للنور تائقٌ.. وشَـغوفُ

راقِيًـا.. راقيًـا إلى الملأ الأعْـ ... ـلَى، ومِنْ حوله المعالى تَطوفُ

***

عاشَ للشعْبِ شـامخًا وعزيزًا ... لا يخافُ اللهيبَ، لكنْ يُخيفُ

فى لقاء العـدوّ صعبٌ عنيفٌ ... وهْو فى جنده رحـيمٌ عطوفُ

«فـالمنايا ولا الـدنايا» شـعـارٌ ... قـد تبنَّاهُ، لمْ يَنَلْهُ الخـسـوفُ

كان يَمْضى: سلاحُه العزم والنا ... رُ، ونورُ التُّقَى، ودينٌ حنيفُ

بالقليل القليل يسحقُ جيْشا.. ... مِنْ جيوشِ «السُّفْييت» وَهْوَ أُلوفُ

مرَّغ «الدبَّ» فى الوحولِ فأضْحى ... فى هوانٍ، فقالَ ناسٌ: «خروفُ»

***

كـانَ فى شدَّة الجليـدِ لهـيبًـا ... ساعرَ الجمْرِ، بالأعادى يُطيفُ

يسـتـوى عنده شـتـاءٌ رهيبٌ ... وربيعٌ، وصَيْـفُهـا، والخريفُ

مـرَّةً فى الجنوب بعـدَ شمـالٍ ثم فى الشرْقِ نارهُ والسـيوفُ

مرَّةً فـى الجبال، وهْـىَ عَوالٍ ثم فى السهلِ، وهْو ريحٌ عصوفُ

ثم فى خنـدقٍ يقـودُ رجـالاً ثم فى قـمةٍ حَـوتْهم كهـوفُ

وهْو - آنًا -كما الأسودُ الضوارى يسْكن الغابَ حيثُ تَمْضِى الزحوفُ

ها هنا اليومَ، أوْ هناكَ مـساءً وله فى العدوِّ ضربٌ: صنُوفُ

ينثرُ الروسَ نثرةً. . بعد أخرى والذئابُ الضوارى عليهمْ عُكُوفُ

واقفًا فى عـين الرَّدى لا يُبالى وكـأنَّ الردَى صـديـقٌ أليفُ

لا تَقُلْ «جنَّةٌ»، فما تصْنعُ الجنَّةُ مـثـلمـا قـد أتَى «دوديف»

ساومُـوه: لك الأمـانُ، ومالٌ ونفـوذ سمـا، وقصـرٌ منيفُ

قال - والأرض مائجاتُ الروابى طَلْعُها النارُ، والدخانُ الكثيفُ:

غايتـى خالقى، ونصـرٌ عزيزٌ يُنْصِف الحقَّ، أو ممات شريفُ

***

ثم كان القضاءُ أقْوى منَ الظنِّ ولله فى العـبـادِ صُـروفُ

يرحلُ القـائدُ المهـول وتبـقى أمةٌ كُلُّ مَنْ بها. . «دوديف»

شهيد من تركيا

«تكْنرَ طيفورْ» طالب تركى كان يتلقى العلم فى كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد فى باكستان حيث كنت أعمل (معارا من كلية الألسن بجامعة عين شمس فى مصر). وكان تلميذى «تكنر» حسن السمت، مشرق الوجه، طويل الصمت. وكان كثير الانقطاع عن الدراسة، على الرغم من ذكائه الواضح.. وإقباله على القراءة والتحصيل، ولم يقدم لى سببًا واحدًا وجيهًا لانقطاعاته المتعددة.

وفى أواخر ديسمبر سنة ١٩٨٧ تركت إسلام آباد لأداء العمرة وزيارة أبنائى فى القاهرة، وعدت إلى إسلام آباد بعد أسبوعين ليخبرنى الطلاب أن «تكنر طيفور» قد لقى ربه شهيدًا فى إحدى المعارك داخل أفغانستان.

واكتشفت أن انقطاعاته المتعددة عن محاضرات الجامعة ترجع إلى ذهابه لأداء واجب الجهاد فى عمق أفغانستان دون أن يعلن عن ذلك.

لقد حاول -رحمه الله- أن يجمع بين «الكتاب والمدفع» إلى أن نال «الشهادة الكبرى» التى صيغت بدمه الزكى، وكان اسمه الحركى «محمد طه». وقد ألقيت هذه القصيدة فى الاحتفال بذكراه فى مسكن الطلاب بإسلام آباد فى ١١/٣/١٩٨٨.

... وقرأتُ صحيفةَ أحوالِهْ

الإسْمُ: تِكْنَرْ طَيفورُ

جنسيته : تركى وافد

والعمرُ: يقارب عشرينا

والعملُ: طالب علمٍ فى الجامعةِ الإسلاميةْ

فى الفصل السابعِ

عاليةِ اللغةِ العربيةْ

والمسكنُ: بيتُ الطلاّبِ

***

وأداعبُهُ . .

وأنا أرصُدُ

فى كشف الطلاب الغائبَ والحاضرْ

أ «تكنَزُ أنتَ»؟

أم أنّك - يا ولدى - تُدْعَى «تِنْكَرْ»؟

يبتسمُ . . .

ويقولُ بخجلٍ عذْرىٍّ:

قُلها . . أستاذى . .

قلْ أىَّ الإسمينِ تشاءْ

فأقول:

«لا تلكَ ولا هَذى . . .

أدعوكَ - وهذا أحسنُ - «طَيفورْ»

ولأصرفْ نظرى

عن «تنْكرْ» أو «تكْنُورْ»

***

قد كانَ بسيطا . . وحيِّيًا

صافِى اللمحاتِ

نقىَّ السَّمْتْ

ويطيلُ الصمْتْ

ويعيشُ الصمْتْ

وكأنَّ نداءً عُلْويًا يحدُوهُ

يدنيه إليه . .

يُناديه . . .

من خلف الغيْبْ

«لا تبعدْ عنَّا

وتقرَّبْ منَّا . .

واتركْ هذِى الأرْضَ

لطين الأرضْ

عبّادِ الأرْضْ

وتزودْ لرحيلٍ عُلْوىٍّ المَسْرَى

قدسىٍّ الومْضْ

عطرىٍّ الفَيْضْ

فالموعدُ حانْ . .

والموعدُ هذى المرَةَ يا طيفورْ

جنةُ رضوانْ

وحواصلُ طير خُضْر

تسبحُ فى ظلِّ العرشْ

عرشِ الرحمنْ . . »

***

وأعودُ من القاهرةِ لأسألْ

أسألَ طلابى . . .

أسألَ عنه

لاذوا بالصمْتْ

فقرأت النبأ الفاجعَ

في قاموسِ الصمتْ
فبكيت.. وبكيت...
وبكيتُ بقلبٍ
زلزلَه جبروتُ الموتْ...
أمضيتْ؟
أمضيتَ سريعًا يا ولدى..؟
ورحلتَ غريبًا يا ولدى؟
أكذا يا «تكْنر» من غير وداعٍ ترحلْ؟

***

لم تحضرْ أمُّكَ يا ولدى...
مشهدَ رحلتِكَ الأبديهْ
تحملك الأيدى يا ولدى..
جسدًا فضيا..
وسريًا...
كفَّنَهُ الدمْ..
هل مازالتْ أمُّكَ - يا ولدى -
تتهجدُ فى جوفِ الليل وتدعو

«باركْ يا ربِّى ولدى تكنَزْ
وامنحهُ النعمةَ والصحةَ
ياذا الفضْلْ
واجعلهُ على قمة من ينجحُ
من طلاب الفصْلْ»
هل مازالت أمك - يا ولدى -
تحلمُ بالمستقبل مَجْدًا
للإبن الغائِب فى حبِّ العلْم؟
وتباهى الجيرانَ
بقلبٍ تُرقصهُ الفرحةُ والشوقْ؟
«ولدي سيعودُ قريبا
وشهادتُه الكبرى فى اللغةِ العربيةِ
لغة القرآنْ
من باكستانْ
تجعلُهُ عند بناتِ الجيرانِ
فتى الأحلام...
ولا الفرسانْ

لكنّى لن أختارَ عروسًا لابنى «تكْنرْ»

إلا من كانتْ ذاتَ جمالٍ

يتفوقُ بحقٍّ وشهادتَه الكبرى

فى اللغةِ العربية

لغةِ القرآنْ..»

***

ومضيْتْ..

بشهادتِكَ الكبرى

يا طيفورُ.. مضيتْ..

وشهادتك الكبرى

- هذى المرةَ يا ولدى -

فى ميدان لا يعرفُ قلمًا

أو قرطاسْ

بل تُزْرى بشهاداتِ الناس

عباقرةِ الناسْ..

***

وقرأتُ صحيفةَ أحوالِكْ

أعنى: وأعدتُ قراءتها..

الإسمُ: تِكنرْ طيفورْ

لا . . .

أستغفر ربى . . .

الإسمُ: نورٌ وزهورْ

والجنسيةُ: ربانىٌّ مسلمْ

والعمرُ: خلودٌ ممدودُ

والعملُ: شهيدٌ موعودُ

والمسكنُ: جنةُ رضوانْ

وحواصلُ طير خضْر

تسبحُ فى ظلِّ العرش

عرشِ الرحمنْ . .

***

عوْدَة مُصْعب بن عُمَيْر
(شهيد من أرض الحرم)

* كان مصعب بن عمـير بن هاشم بن عبدمناف من بيت غنى ومال، وقـد هرع إلى الإسـلام شـابًا، وتخـلى عن كل هذا النعـيم والمال والجاه، وكان أول داعية لرسول الله -عليه السلام- فى المدينة قبل الهجرة، وحمل لواءه فى أحد، وفيها استشهد، وفى مارس سنة ١٩٨٨ كنت فى إسلام آباد، وعلمنا باستشهاد شاب من أثرياء السعوديين آثر أن يترك متاع الدنيـا مجـاهدًا فى صفـوف المجاهديـن داخل أفغـانستـان. فكانت هذه القصيدة.

(١)

وَيْحَ نفسِى. . !!
ماتَ ميلادى القديمْ
إننى فى حاجةٍ حَرَّى. .
لميلادٍ جديدْ
نابعٍ كالفجرِ من صُلْب الحقيقةْ
بنسيج ثائرِ النبْضِ
لهيبِ العُنْفوانْ
ودماءٍ من مَضَاءْ

وضميرٍ منْ ضياءْ
وجبينٍ من إباءْ

(٢)

يا دنيا غُرِّى غيْرِى
هل أنتِ إلىَّ تعرضْتِ
أم أنت إلىّ تشوقْتِ
هيهاتَ -أسلِّمُ- يا دنيا
يا دنيا ما أعظمَ خطرَكْ!!
يا دنيا ما أقصرَ عمرَك!!
ما أهونَ زادَكِ يا دنيا!!
والدربُ طويلٌ وشريدْ
والسَّفرُ شقىٌّ وبعيدْ
والزادُ الحقُّ هو التقْوى
لا ما تهْوينَ
وما أهْوى..

(٣)

ما الذى قد غيَّرَكْ
فأخرجَكْ؟

تتركُ المالَ
وظلَّ الروْضِ
والزوجةَ
والسهلَ الذهبْ؟!!
تهجرُ السيارةَ المرْسيدسَ الفخمةَ
والعطْرَ..
وأملاكًا عجبْ؟!!
والشفاهَ اللُّمْىَ
والخدَّ الأسيلْ
والأغانى..
والأمانى
وانتشاءاتِ الأصيلْ؟!
ما الذى
يا أيها الإنسانُ.. قل لى:
غيَّرَكْ؟!

***

دفترُ الشيكاتِ..
فى الدُّرْج الشمالىِّ من المكتبِ

ما عادَ لهُ فى قلبِه
أىُّ حِسابْ
والرصيدُ الضخمُ فى البنْكِ
هوى فى ناظريهِ . .
لم يعدْ يعدلُ حتى شِسْعَ نعْلِهْ
غيرُ صوتِ الحقِّ فى أعماقِهِ
أضحى خرابْ
أمُّ كلثومٍ
وفيروزٌ
وسلْمَى
وعتابْ
كلُّ هذا طعمُهُ ملْحٌ
وتَنْعابُ غرابْ
وضياعٌ واغترابْ
وكئوسٌ من سَرَابْ

(٤)

من ذا الذى قدْ غيَّركْ
وأخرجَكْ

وحوّلكْ
من بلبلٍ عاشَ الوداعةَ
والسكينةَ
والرفاهةَ
والنِّعم
لكاسرٍ
ضارى العزيمةِ
همُّهُ خوضُ المعاركِ
والفيالقِ
والخنادقِ
والضَّرَمْ؟
سبحانَ منْ سوّاكَ
ثم عدّلكْ
فى صورةٍ شمّاءَ
شاء ركّبَكْ
يأيها الإنسانُ
-فى ساحاتِها-
ما أعجبَكْ؟

(٥)

قد كان ثم صارْ

من جدةٍ

لغزْنَةٍ

لقنْدهارْ

حيثُ الجليدُ

والحديدُ

والزحوفُ

واللظى المُوارْ

حيثُ الجبالُ السودُ

والقفارْ

حيثُ الهزيمُ والدمارْ

وغربةٌ . . .

بعيدةُ المدى عن الديارْ

لكنه في زحفِهِ . . وعصْفِهِ

-رأيتُهُ-

كمارجٍ من نارْ

سلاحُهُ الرشاشُ

واليقينُ

والنهارْ

رأيتُهُ

فى زحفِه وعَصْفِهِ

لِلّيلِ والمدَى وللصخورِ . .

منْ زحوفِهِ انبهارْ

(٦)

يا مصعبُ الجديدْ

يا عزمةً حديدْ

طوبَى . .

فقد هويْتَ

فى مضمارِها شهيدْ

طوبَى

لكَ الخلودُ

فى مُقامِكَ السعيدْ

يا مصعبُ المجيدْ

إسلام آباد

مارس - ١٩٨٨م

إمامُ المسْلمين
أبُو الحَسَن الندْوىّ

توفي عن عمر يناهز ٨٧ عامًا فى رمضان ١٤١٧هـ، وله عشرات من الكتب. وقد أسس رابطة الأدب الإسلامى بالهند، ثم انتقل إلى الرياض ١٩٨٦م، وألقيت هذه القصيدة فى حفل التأبين الذى أقامته رابطة الأدب الإسلامى العالمية بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة مساء الإثنين ١٧ من شوال ١٤٢٠هـ - ٢٤ يناير ٢٠٠٠م.

أبا الحَسَنِ الندْوىَّ، والروحُ مثقلٌ　　بكلِّ عوادِى الحزنِ والقلبُ ينْزِفُ
وقد فاضَ دمعى مِنْ تواصُلِ محنتى　　فما أوقفَتْ همِّى مدامعُ تذْرِفُ
فصرْتُ كيانا ضائعا فى متاهةٍ　　تَهُبُّ عليها الناكباتُ، وتعْنُفُ
أأرثيكَ؟ لكنْ مَنْ أعزِّى، وإننى　　قصيرُ مدَى الأشعارِ، والكونُ يَرْجُفُ؟[1]
ففى الأرض من هولِ الفجيعة مأتمٌ　　تُقيمُ به الأحزانُ حَرَّى.. وتعكفُ
مشارقُ تبكى يُتْمها، ومغاربُ..　　وقد غِبْتَ عنْها، والنوازلُ تقْصف
وإنك يا ندْوىُّ بالحقِّ أمَّةٌ..　　إمامٌ جليلٌ، زاهدٌ، متعففُ..

* * *

أتتركنا والقدسُ فى أَسْرِ عُصْبَةٍ　　تزعَّمَها لصٌّ.. بغىٌّ.. مُزَيِّفُ

(١) يرجف: يهتز ويتزلزل.

وهذى شعوبُ المسلمين وأرضها … أباحَ حماها غادرٌ.. متصلِّف

تجبَّرَ فيها قادةٌ من صَنيعه … إذا وعدُوا خانوا، وخابوا، وأخلَفُوا

وإما اشرأَبَّتْ للخلاصِ رقابُها … فليسَ لها إلا حبالٌ وأسْيُفُ[1]

وأهلُ النفاقِ النذْلِ سادُوا وعربدوا … وهمُّهمُو مالٌ، وجنسٌ، وزُخرف

سلاحُهُمو الإفكُ الكذوبُ، وإنهمْ … بكل سَلوليٍّ المناهجِ.. أعْرف[2]

فقالوا لأضْرى القوم فى البخلِ «حاتمٌ» … ومَنْ فاقَ فى قبح الملامح «يوسُف»

وقالوا لرأسِ الجبن إنك «عنتر» … ومَنْ قد عَداه الحلمُ والعفوُ «أحنفُ»[3]

وأنَّ الذى خانَ القضية «مخلصٌ» … وكلُّ ظلومٍ فاسدِ الحُكْمِ «مُنصِفُ»

ضمائرُ مِنْ عِهْنٍ تُباع وتشترَى … نمتْها قلوبٌ بالرذائل غُلَّف..

* * *

سِجِلُّكَ - يا ندْوىُّ-بالنور ناطقٌ.. … وإن سجلُّ الآخرين.. تكَلُّف

ضربتَ كما ضرْبِ الكليم، ففُجِّرتْ … عيونٌ عن السحر الحلال تَكَشَّف[4]

ومشربها علْم غنىٌّ يرومهُ.. … وينهلُ منهُ الظامئُ المتلهِّفُ

فعينٌ تُروِّى الروحَ بالكَلِم الذى … يُنقِّى مداها باليقين.. ويُسْعِف..

---

(١) اشرأبت: امتدت وتطلعت

(٢) سلولى: نسبة إلى عبدالله بن أبىّ بن سلول رأس النفاق.

(٣) الأحنف بن قيس: أشهر العرب فى الحلم.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ...﴾ [البقرة: ٦٠].

وعينٌ لفـقه صـادق.. متسـامح ... جليلِ العطـايا لم يكنْ يتـعـسَّفُ

فـمـا كـان ديـنُ الحقِّ إلا توسُّطا ... وقصْـدا، وعدْلا لم يَشُـبْهُ تَطرُّف

وعينٌ لدستور الـدُّعاة إلى الهدَى ... يَخطّ إلى الحقِّ الدروبَ.. ويَزْلفُ

يردُّ سـهامَ الكائدينَ لنحـرِهمْ.. ... وفـيـهم دَعيٌّ العلْـم والمتـفلسفُ

وعينٌ لآدابِ يعِـزُّ نـظيـرُها... ... كمثلِ نَدَى الأسحارِ، بل هيَ ألْطفُ

وعلّمْـتَنا أن الفنونَ رسـالةٌ.. ... من الأفق الأعلى تـعُبّ وترشفُ

تَشـيدُ وتُعلـى فى بيانٍ مـؤثرٍ.. ... سَمَـا منهُ تصويرٌ وفـكرٌ وأحْرفُ

تنزَّه عن طَمْثٍ يُسـمَّى «حَـداثةً» ... ومـا هى إلا فـتنـةٌ.. وتخلّفُ

وأهْدَيْت أبناءَ العروبةِ - صادقا - ... «روائعَ إقبالٍ» كما اللحن يُعْزَفُ..

وعيبك - يا إقبالُ - أنك مسلمٌ.. ... ولو كنتَ بوذيّا.. لهامُوا وأزْلفُوا

* * *

قرأتُك يا ندْويُّ بالأمس يافـعا.. ... وكهْلا وشيخا.. بالمعارفِ يُشْغَفُ

وعشتُكَ فى سُؤْلٍ عن العالم الذى ... هوَى «بانحطاط المسلمين» يُخرِّفُ

حـضارتُنا بالأمس قـادتْ مَسـارَهُ ... ومن نورها تَخزَى الشموسُ وتكْسَف

فقـامتْ ثقافاتٌ، وعـمَّتْ عدالةٌ ... ومنبعُها القـدسىُّ عزمٌ ومصحفُ

فلما جفـوْنا شرْعنا هانَ أمرُنا.. ... كأنا غثاءُ السيل، بل نحنُ أضعف

وفى أدبِ الرحْلاتِ قدَّمْتَ رائعا: ... رُؤى ودروسـا باليقين.. تعَـرِّف

سياحاتِ حقٍّ قد طويْت بها المدى ... من الشرق والغربِ البـعيد تُطوِّفُ

إلى الله تدْعـو، والظلامُ معـربدٌ وكلُّ غـويٍّ بـالمفـاسـدِ يـهـتفُ

وما كنتَ إلا أعْظمـا قد تهالكتْ عليـها تجـاليـدٌ.. براها التَطوّفُ

وضَـمَّرها الحـزنُ الأليمُ.. لأمَّـة غدتْ فى قيود الجهلِ والذل ترْسفُ

وعشْتَ بقلب ساعرِ النبضِ مؤمنٍ يُخيفُ الأعادى، وهو لا يَتخوَّفُ

يفـيضُ به الإصـرارُ والحقُّ والسَّنا مَـضَى فى سبـيل الله لا يَتـوقّف

فكنتَ رفيع الرأسِ كالطودِ شامخا وفى كلِّ جُلَّى لم يَهُنْ لك موْقف[1]

وآثرت عن دنيـــاك أخْـرى زهادةً وعشتَ كفافـا، لم يشدّك زُخرفُ

كمـثل أبى حفص بعـام «رمادة» يجوعُ ويمضى للجـياع ويَغْرِفُ[2]

فـمـا كنتَ «يا ندْوىّ» إلا بقـيَّـة من السلفِ الميمـونِ للحقِّ تهدِف

* * *

«أبا الحسن الندْوىَّ» يلقاكَ سيدى «محمدُ» خيرُ المرسلين.. وأشرفُ

فـــبلّغْـه عـنا فى الجنان رســالةً بأنا - دعـاةَ الحـقِّ - لا نتـوقف

وأنا رصْـــدنا لـلإله جـــهـادَنا ليُـقْهَـرَ عادٍ، كـافـرٌ، متـغطْرِف

وننصـــرَ دينَ الله أنّى توجـــهتْ كـتـائـبُنا، لا يعـتـريـنا تخـوّف

وكيف نهابُ المـوتَ، وهو شهادةٌ وفـينا اشـتـيـاقٌ نحـوها وتلهفُ

وكل شـهـيـدٍ فى الجنانِ مـخلَّد يعيش نعيمـا غامرًا ليس يُوصف

---

(١) الجلى: الأمر الخطير العظيم.

(٢) عام الرمادة سنة ١٨ هـ. وفيه كانت أشد مجاعة عرفها المسلمون.

عمر بهاء الدين الأميرى

الشهيد على فراش الغربة

ولد عـمـر فى مدينـة حلب عام ١٩١٤، وأتم دراسـتـه الثـانوية فى سوريا، والعليا فى فرنسا. عـمل بالتدريس فى سوريا وجاهد فى فلسطين مع جيش الإنقاذ ودرس فى جامعات المغرب والرياض، وهو يتقن التركية والأوردية والفـرنسيـة، وله عشـرات الدواوين. وبسـبب مبـادئه منع من دخول سوريا ومات غريبا في الرياض بالسعودية.

كم أسـعـد الدهر أيـامى وهنَّأها — وكم رمانى بخطب جـاء يشقينى

لكنه اليـوم شـد القـوس عـاتيـةً — وأطلق السهم فى قلبى ليـصمينى

أصـاب منى سـويدائى فهـتكهـا — وليس ثـمّـة من طب يـداوينى

وليس مَنْ حلّ قلبى غيـرُ واحدِهِ — «عمر البهاءِ الأميرى» شاعرِ الدين

«أبا البـراء» أأرْثى فـيك شاعـرَنا — وكـيف أقـدرُ أن يُوفِـيكَ تأبينى؟

وأنت رب بيـانٍ عـزَّ مـوردُه — كلؤلؤٍ فـاتن الإشـراقِ مكنون

أم أمـضينَّ وأرضى فـيك أمـتنا — وأرثـينّ هـنـاءاتـى وأرثـيـنـى

أبى وعـمى ونفـسـى أنت كلهمُ — يا ليتَ نفـسـا تُفـدّى بالقـرابين!

إذنْ فـديتك بالأهلينَ قـاطبـة — وفى فـدائك أرخصْ بـالملايين!

ألم أعـشكَ بأشـعـارٍ مـجنحـةٍ — فطرتُ عشقًـا «كأنى لستُ من طين»؟

وصرتُ «ألوانَ طيفٍ» فى تألقـها وصرتُ غيرى، وغيرى فى شرايينى

و«روضةُ المصطفى» فى القلب مشرقة شـلال حب يوافـينى ويُحـيـينى

وفى «النجاوَى» نجاةٌ النفسِ من كدَرٍ فى عالم غـارقٍ فى الإثمِ مرهونِ

فإن رقـقتَ فقـلبٌ ذابَ مرحـمةً وفى يمينك يـعلو غـصنُ زيتـون

منهُ يسـيل قـصيـدٌ عـاشقٌ عطِرٌ وبلبلُ الروض يـشـدو بالأفـانين

ويصـبـحُ الكونُ جنات منمـقـة كأنّ أشـجارها من حـورِها العِين

حـتى إذا مسّ عادٍ عـرْضَ أمـتنا أوْ همَّ يخدشُ شيئا منْ حمى الدين

أضحى قصيدُك هو لا مِلْؤُه ضَرَمٌ فليس غـيـــر سـعـيـرٍ أو براكين

وأصـبحَ القلمُ السـيّالُ عـاصفـةً تجـتـاح كل دعيٍّ الفـكر ملعـونِ

ويسأل الجـمع «من ذا» إنّه عـمرٌ «عمرُ البهاءُ الأميرى» ثار من لين

فـدكّ دعـــواهُمُ بالحق فى ثـقـةٍ ومـزَّق السـتْـر عن غـرٍ ومأفـون

إن الحلـيم إذا مـــــا ثار ثـائرةٌ فليس منه سـوى جـمر وغِـسلين

* * *

يا سـائحًا فى سـبـيل الله غربتُـهُ وما ذلَلْتَ وما اسـتسلمتَ للهُون

فى الشرق والغرب تمضى تحت رايتِه فى درب «أحمـدَ» والغُرِّ الميـامين

لئن جـفتْكَ بلاد أنت صـفوتهـا فافخرْ بأنك لا، لم ترض بالدون

نزلتَ فى كل قلـبٍ مـؤمنٍ سكنا من الرباط.. إلى مصرٍ.. إلى الصين

«رصيدُك» الضخمُ حبٌّ لا نَفَادَ لهُ يجـودُ بالروح دومًــا والرياحين

فمـا اغتربتَ. ولكن ظلَّ مغـتربًا من عاش فى أرضهِ عيشَ الملاعين

بشـرعةِ الغـابِ لا دينٌ ولا قـيمٌ فلا يُرى غـيرُ سـجانٍ ومسـجون

حيث الحقيقـةُ تاهتْ فى غيابتهمْ وخلفــهـا ألفُ جــزارٍ وسكين

لكنّمـا عشتَ همّـا ضاريًا نهـما همٌّ اغـتـراب وهمًّـا من فلسطين

وهمٌّ كلِّ شـريدٍ مـسلمٍ ضـربتْ به الفـجـاج تلافـيق السـلاطين

أكلمـا شبَّ جرحٌ فى مـشارقـها تبيتُ بالمغرب الأقـصى كمطعون

وتنزفُ النزفـةَ الحـرَّى مـبـرِّحـةً وكنتَ درعـا لموجـوعٍ ومحـزون

* * *

يا عاشق «الكعبة الغراء» من دنَفٍ كم ذبتَ نورا مع الأحقافِ والتين

وعانقَتْ روحُك السمحـاءُ فتنتَها فى الذارياتِ وفى قـافٍ وفى نونِ

وفى المثانى وجدتَ الريّ من ظمأٍ وجـنةَ الـروحِ فـى طـه وياسـينِ

وكم صرختَ بقلبٍ يغتلى ضَرَمًا «يا جندَ طهَ أعيـدوا مجدَ حطين»

«أبا البـراء» سلامـا، لا تُرَعْ أبدا نمضى - كما شئتَنا - شُمًّ العرانينِ

ومـا زرعْتَ سيُـؤْتى كلَّ باسقـةٍ تغـيظ كلَّ كفـورِ القلبِ مـجنونِ

فاهنأ بأخراك فى نُـعمى ومكرمةٍ وانعمْ بعَـدْنٍ وأجْـرٍ غـيـرِ ممنون

عمر بهاء الدين الأميرى

أمير العاشقين

وعشتَ غريبًا.. ومتَّ غريبا ... ولكنما ما فقدتَ اليقينْ

فليستْ بِسُكنى الوكورِ النسورُ ... وليسَتْ أسودُ الشَّرى بالعرين

فقدْ يعتلى البومُ شُمَّ الجبالِ ... ويُؤوى النمالَ العرينُ الركينْ

وتمضى أبيًّا، فأنَّى انتقلْتَ ... ففى بُرْدِك المجدُ نورٌ مُبينْ

ومادَتْ جبالٌ، وذَلَّتْ رجالٌ ... وقلبُك بالحق.. لا يَسْتكينْ

وهيهاتَ مثلُكَ أن يُستَذَلَّ ... فمثلُكَ يُؤثِرُ قطعَ الوتينْ

ومنْ عاشَ جبْهتُهُ فى السماءِ ... ترفَّعَ أنْ ينحنى أو يهونْ

فلله، عزتُهُ.. والرسولِ ... وعَزَّ بعزَّته المؤمنون

وقالوا بأنك ضدّ الولاءِ ... وضدُّ الحضارةِ و«المنقذين»!!

وتنكرُ «قوميةَ» المخلصينَ ... وما هى إلا انتصار مبين!!

وفهمك للدين رجعيةٌ ... تُدَمِّر عقلَ الشبابِ الفطينْ!!

* * *

أيا عُمَرَ الخيرِ أنتَ الصدوقُ ... وزُمْرتُهُمْ زُمْرة الكاذبين

فما كان جُرْمُك إلا الولاءَ ... لربِّك لا للطغاةِ العَمِينْ

ومـا كـان إثمُـكَ إلا النقـاءَ وإيقـاظَـكَ النُّوَّمَ الغـافـلين
وشِـعـراً يؤرِّقُ ليلَ البُـغـاةِ ويَخْـلَعُ قلبَ الغَـوِيِّ اللعينْ
ودعـوتَكَ «الدينُ حكـمٌ وجنسٌ وروحٌ وجـسمٌ ودُنْيـا ودين
وخـيـرٌ وخـيلٌ وحـبٌ وعلمٌ ونفـسٌ تموتُ وتأبـى تهـونْ»
ولكنَّ «قـومـيـةَ» الأدعـيـاء فـسـادٌ وغَـىٌّ وظُلْمٌ مـبُين
بهـا انتُـهِكَ الـشـرَفُ اليـعْـرُبِىُّ وهتِّكَ عِـرْضُ البـلادِ المَصـوُن

* * *

أرادوك أن تـنْـحَـنِـى لـلـريـاحِ لتـحيـا حـيـاةً.. بها ينـعَمُـون
تعـانقُ زُخْـرُفَـهـا فـى هَناء وتنْشُـرُ دِفْـئَكَ فـوقَ الـبنينْ
فـلا أنتَ تتـركـهمْ للفـراق ولكنْ بقـربكَ هم يَسْـعـدون
وتصـبحُ صـاحبَ أمـرٍ ونَهْى ومـالٍ وأرْضٍ وقَـصْـرٍ ثَمينْ
وفى يَدِكَ الحـوْلُ والصـوْلجـانُ ودَرْبُك فَـرْشٌ طرىٌ فَـتينْ
فلـمَّـا رأيتَ الخَـنَا إذ يَسُـودُ وأنَّ النـفـاقَ وسـامٌ ودينْ
وكـيفَ يـعـزُّ المهينُ الخـسيسُ وكـيفَ يُـهـانُ الحـفـيظ الأمينْ
وكـيفَ انطَوَتْ قـيمٌ سـاميـاتٌ وكـيفَ اسـتبـد البُـغـاةُ المَهين
هتـفْـتَ: «المنايـا وليس الدنـايا مـرامُ الأبـاة من المـؤمنـين»
مَـقَـامٌ جلـيل بلـغْتَ ذَراهُ فـهـانَـتْ عليك الدُّنَى والـبَنُونْ

فـدربٌ جَـفَـاك، ودربٌ حَـدَاكَ به قــد مَـضَـيْتَ أَشَمَّ الجـبينْ

«مع الله» فى دربِـه المستـقـيمِ وأنـعِـمْ بـدربِ الإلــه المُـعِـينْ

فـمـا بيْنَ شـرقٍ وغـربٍ تَـعِـيشُ مـآسى الضّـحـايا مِـن المسلمينْ

برُوحٍ زكـىٍّ، وقلـبٍ شــجىٍّ وشِــعْــرٍ غنىٍّ قــوىٍّ رصينْ

تحــمَّلتَ آلامَــهُــمْ مــا وَهَنْتَ ومنْهـــا المبينُ ومـنهـا الـدّفينْ

وعِـشتَ على الألـم العبْـقـرىِّ تَدُكُّ حـصـونا وتـبْنى حُـصـونْ

وتسْـتنهضُ الهــممَ الفــاتراتِ لتـخليصِ مَـسْـرى النبىِّ الأمينْ

وتمضى كطـيفٍ شَـفـيـفٍ طليقٍ لتُـحْـشَـرَ فى زُمْـرَةِ العـاشـقينْ

وعـشْـقُكَ ليـس كـعـشْقِ الذى يصــوغُ قــصــائدَهُ بالمـئينْ

يُناجـى بهــا عــبْلةً أو بُـثَـيْنَ ولَيْلى بـقلب مَـشُـوق حَـزِينْ

ولكنْ عـشـقْتَ المـعـانى الكِبَـارَ بعـــزم حـــديد أَبَى أنْ يَـلينْ

وهِمْتَ كـيـانا زكىَّ الـعَـبـيـرِ «بروضـــة طَه» هُدَى العـــالمينْ

وفى كعبةِ البـيْتِ قد صِرْتَ خَلْقا من الحُبِّ والطهْـرِ واليـاسَـمينْ

فهـذا هو العشْقُ - لا عشـقُهُمْ- سُـمُـوٌّ وتـقـوى ونَبْـضٌ حَنُونْ

وقـدْ صِـيغَ فى كَـلِـمٍ عـبْـقـرىٍّ هو السّـحْـرُ لا كـالذى ينْظمـونْ

فـشــتَّــانَ مــا عندليبٌ غــريدٌ ومن يهْــرِفُــونَ بما يـجْـهلونْ

وشـتّــان ليْثٌ مـهـيبُ الـزئيـرِ -إذا الخطبُ طمَّ - ومنْ ينهـقونْ

فـشـعـرُكَ مَنْهـلُهُ من عَـبـيـرٍ   ومنْ حَـمَـأ عَـفِنٍ ينحـتـونْ
فـهلْ يسـتوى شـاعـرٌ مُسْـتنيـرٌ   وعُـمْىُ البـصـيرةِ؟ لا يَسـتَـوُونْ

* * *

بشـعـرِك علَّمْـتَنَـا أن نكونَ   وأرْسَـيْتَ فـينا جُـذُور اليـقينْ
وعلمـتنا الصـبـرَ فى النازلاتِ   وألا نكـونَ من القـانطـينْ
وعلمـتَنَا أن نحـبَّ الحـيـاةَ   جـهـادا وصـبـرا وعِلْمـا ودينْ
ولكـنْ كـدارِ بلاغٍ.. لِـدَارٍ   تَقَـرُّ بها - فى النعـيمِ - العُيـونْ
كـذلك عِـشْتَ رفـيـعَ اللواءِ   كـريمَ العَطـاء.·. تَقـيًّـا أمينْ
ومثلُكَ إنْ مـاتَ جِسْـما سيـبْقى   وسـامًـا يُحلِّـى صُـدورَ القُـرونْ

* * *

نجيب الكيلانى

نجيب الكيلانى (١٩٣١ - ١٩٩٥) ولد بقرية شرشابة بمحافظة الغربية بمصر، وتخرج فى كلية الطب، ويعد من أهم رواد الأدب الإسلامى فى الرواية والقصة والشعر والتنظير. وقد اعتقل وسجن عدة مرات بسبب انتمائه ونشاطه فى جماعة الإخوان المسلمين. ومازال أدبه مادة حية للبحث على المستويات العامة والأكاديمية. والقصيدة ألقيت فى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة، فى حفل تكريم له.

ها هُوَ الجمْعُ قد أتانا حميدًا ... مُشْرِقَ السَّمْت عاطر الوجدانِ

قد تلاقَوْا فى شِرعةِ الحقِ والفَـ ... ـنِّ.. وسامى الآدابِ.. والتبْيانِ

وَحَداهُمْ من السَّجايا وفاءٌ ... كى يُحيُّوا نجيبَها الكيلانى

شاعرٌ. ناقدٌ. أديبٌ. طبيبٌ ... قلتُ: «سبحانَ ربِّنا المنّانِ»

إذْ حباكَ الكثيرَ، فهْوَ كريمٌ ... فأتيْتَ الثمارَ قبْلَ الأوانِ

وبيانُ اليقينِ سامٍ ونامٍ ... وبيانُ النفاقِ ذاوٍ وفانِ

كالألى يرقصونَ فى المهرجانِ ... ويخرُّونَ فيه للأذقانِ

يلْثمونَ البِساطَ فى نَشَواتٍ ... والولاءُ الخسيسُ للطغيانِ

أبدا ما استَوتْ عقودٌ زجاجٌ ... وعقودُ الياقوتِ.. والمرجانِ

أبدا ما استوتْ جبالٌ عَوالٍ ... شامخاتُ الذُّرا مَعَ القيعانِ

***

قد جَمعْتَ البيانَ والطبَّ. مَرْحَى وجـعلْتَ البحـرينِ. . يلتـقيـانِ

بحـرَ شـعرٍ، وبحـرَ نثْـرٍ رَصينٍ نَقْـــدُهُ والقَـصُّ يَسْـــتـــويانِ

وبَنيكَ الخـــمـــسين بالقلـمِ السَّـ ـيَّـالِ أنْجبْتَ مِـنْ رشيـدٍ وهَانِي

كلـهُمْ رائـعٌ، جلـيلٌ، بـهِيٌّ. . آسـرُ السـحرِ، فـاتنٌ فى المبـانى

* * *

وكـأنِّـى فى غـمْــرةِ الحبِّ أرنُو فــإذا الخـــاليـــاتُ مـنى دَوَانى

فـالإمامُ العظيمُ فـى الفيْلقِ الفـذِّ (م) يرُودُ الجـــمـــوعَ. . كـــالربَّانِ

رافــعًــا بالـيـقين خــيْــرَ لواءٍ باركتْ زحـفَــهُ يـدُ الرحـــمن

هاتفًـا بالجـمـوع تتلُو جُـمـوعًـا «مِنْ هنَا يا جُـمـوعُ. . للقـرآنِ»

وعلى صـوته صـحـا المشـرقـانِ ومن الصــوتِ زُلْـزِلَ المغـــربان

وبظـلِّ اللواءِ كــــان «نجـــيبٌ» فى حـشـودٍ من خـيرةِ الشـبَّـان

وكـأنَّ العُقَـابَ تَمْـضِى انتصـارًا مـثلَ بدرٍ يومَ التـقى الجـمـعـان

«يا نجـيبُ الطـريقُ جـدُّ طويل مـــائـج بالذئابِ والحِـــرْمَـــانِ

يا بنَ «شِـرْشـابة» تمـهَّلْ لتبـقى فى أمـانٍ وعــيـشـةِ اطمــئنانِ»

ونجـــيــبٌ يصـــرُّ أنْ يقـطعَ الدرْ بَ مليــئًـا بالـشـوكِ والنيــرانِ

وإذا قلبُـــهُ ســعــيــرٌ تـلظَّى وإذا جــســمُــهُ كـمـــا الصـوَّانِ

إنَّهـــا عــزْمَــةٌ مــن اللهِ حلَّتْ فى تجـــاليـــدِ ذلك الإنســانِ

وأولُو العــزم يعـشـقُـون المنايا   إنْ أريـدُوا للـذلِّ والإذعــــانِ

* * *

ثم صالـتْ عصابةُ الإفكِ بـالغَدْ   رِ على الحقِّ صـولةَ الشعـبانِ

فـحـضـرْنا جَنازةَ النصـرِ والقـا   نونِ والوعْيِ والـعـلا واللســانِ

يومـهـا مـصـر يُتِّـمتْ، وتجلَّتْ   شـمسُـها فى الحـداد والأشجـان

. . . إذ تَوَلَّى القـيادَ ظُفْـرٌ ونابٌ   وسـيـاطٌ وصـولةُ السَّجَّـانِ

فتعالَىْ: بَنُوكِ -يا مصْرُ- أضْحوْا   طُعْـمـةً بـينَ فكَّى الـذُّؤبانِ

امْتَحـيـهم أثارةً من حـنانٍ   ولبـانٍ من صـدركِ الحنَّان

وضـيـاءٍ من نورِ عـينيكِ علَّ النـ   ـورَ يُـطفِى لـواعجَ الأحـزانِ

* * *

ويْحَ قلبى لم تعـدْ مصـرُ مِصْـرًا   وهْى كـانتْ كـدُرَّةِ الأوطانِ

قطعَ المَـنْسَـرُ الطريقَ عليـهـا   وشـرَوْها للداعـر القـرصـانِ

بدنانيـرَ منْ نُضـارٍ كـذوبٍ   بعـدَ أن غُـمِّسَتْ بطينِ الهـوان

والظلامُ الكـئـيبُ يَـرْوِى الحكايا   دامـيـاتٍ عن شـرعـةِ الغِـيلان

فـشـهـيدٌ هوَى بـسْوطٍ حـقـيرٍ   بالتُّـقَى مُـقْـلتـاهُ.. تلتـمـعـان

ذنْبـه أنَّهُ اسـتـعـاذَ ونادى: «ربِّىَ اللهُ، إنَّهُ مُـسْـتَـعـانى»

وشـهـيـدٌ أبَى السـجـودَ لطاغٍ   وركـوعًا لـعُـصْـبـةِ الشـيطانِ

وشـهـيـدٌ بكـى لحـريةِ . . مَـهـْ ـتـوكةِ العِـرْضِ إذْ دعَوْا للجـانى
وشـــهــيـــدٌ لأنّهُ رفض القـــوْ ميَّـةَ العمْـيَا . . . منهـجَ العُمْـيانِ
والأباةُ الأحيـاءُ فى ظلمةِ الـسجْـ ـنِ مَـعَ النـيِّــــراتِ المـثـــــانى
هلْ يُضَـامُ الذى يعـيشُ على نو رِ الضـحى والإسراءِ والفـرقانِ؟!

* * *

ومـــضى الطائرُ المهـــاجــرُ يَرْتَا دُ الخليجَ الشـقــيق فى نيـسـانِ
يزرعُ الحُبَّ فى الـقلوبِ ربيــعًـا عـبـقـرىَّ السَّنَا نضـيـرَ المعـانى
عَـرْشُـهُ قلبُـه، وفى إصـبَـعَـيْـهِ قَلَمٌ يـزْدَهِى على التـيــجــانِ
ببـيـانٍ كـشـائرٍ . . البـركـان . . وبيــــانٍ كـــالرَّوْح والريْـحـــانِ
واصَلَ الجـهْـدَ والجـــهـادَ بعـزْمٍ حــاسِمِ القطْعِ، نـاصِعِ البُـرْهَانِ

* * *

ويعـــودُ الهَـزَارُ لـلسَّـرْحَـــةِ الأ (م) مِّ ليــــشْـــدُو روائع الألحــــانِ
يحـملُ السـحْرَ والربيعَ فـيكسُـو بالعـبـيـرِ الـنَّدىِّ وجـهَ المغـانى
فَـتُـحـيِّـه بالحـفـيفِ غـصُـونٌ وخــــريرٌ منْ دافـقِ الغُــــدْرَانِ
وطيـورٌ قـد شفَّـهـا الشـوقُ للنَّا زِحِ ذابتْ فى شـــدْوِها الفـتَّـانِ
رحلةٌ طابَ فـى الحـيـاةِ مَـــدَاهَا وأتتْ أُكْلَهـــا الثِّـمـــارَ الدوانى
كنتَ فـيهـا أغَـرَّ شَهْـمًا . . أبيًّـا فى رعـيلِ الفـــرسـانِ والرهبـانِ
حَـسْبُك اللهُ، ثم فـنٌّ جـمـيلٌ «أنتَ حـقًّا نجـيـبُهـا الكيـلانى»

ذكرى خنساء العصر

علية الجعار

كنت أقول لها: أنت خنساء هذا العصر... بكّاءة نواحة، فتبتسم وتقول: نعم، ولكن بكائى ليس على أخ ولا ولد، ولكن على أمة الإسلام.

والقصيدة ألقيتها مساء الجمعة ٢/٥/٢٠٠٣ فى الإسكندرية، فى الحفل الحافل الذى أقامه المركز المصرى للإعلام والثقافة، إحياءً لذكرى الشاعرة العظيمة. وكان الحفل برعاية السيدة الفاضلة الأستاذة جيهان الحلفاوى رئيسة قسم المرأة بالمركز.

رحلتِ فصرنا نود الرحيلا ... لنلقى الصحاب ونلقى الرسولا

فنعم اللقاءُ بدارِ البقاءِ ... نعانق نُعمَى وظلاً ظليلاً

دعوتُك خنساءَ هذا الزمانِ ... فجاء جوابك ردًا جميلاً:

«لقد ذرفَتْ دمعها فى أخٍ ... وكان - بحقٍ - كريمًا جليلاً

كطودٍ، ونارٌ على رأسه ... تضىء لكل الهداة السبيلا

ولكننى لست أبكى أخًا ... ولو كان شهمًا أبيًا نبيلا

فدمعى وقفْتُ على أمةٍ ... تهاوت فصارت طلولاً طلولا

كأنى بها كغثاء السيول ... وبالأمس كانت - بحق - سيولا

وكـــانت بنــاءً حــديــد الكيـــانِ ... منيــعًا، فصــارت كثـيبًـا مهـيلا

وأهدر قـــوتهـــا الحـــاكــمـــونَ ... وكُلٌّ من الغـرب يبـغى القـبـولا

وأمّـا الشـعـوبُ فـمـسـحـوقـةٌ ... من الذُّلِّ صــارتْ تعـيشُ الذهولا

سُكارى ومـا هــم سُكارى ولكن ... هو الظلم يُنسى الخليلَ الخليـلا»

* * *

ولم تقنـطى، فـأثرتِ الشـعــورَ ... لنحيـا المعانى الكـبار الأُصـولا

ونمـضى نـحـــــرر أوطـاننـا ... ونطرد منـهـا العـدو الدخيـلا

وعــشتِ بروحٍ أبـتْ أن تهــونَ ... أبت أن تُـهـــادنَ أو أن تميـــلا

رفـيـــعـةَ رأسٍ كـشُم الجـبــالِ ... وعـزمُك يسـتـصغـرُ المستـحيـلا

وتســـتلهـــمينَ جـــلالَ الإلهِ ... وقـــرآنـهُ، والنبى الـرســـولا

ســلاحُك قلبٌ نبىُّ الـشـعـــورِ ... تدفقَ بالسـحـر، يُحيى المُحـولا

وشـعـرٌ عـزيزُ الرُّؤَى عـبـقـرىٌ ... إذا مـا شدا كـان سيـفًا صـقيـلاً

عـلى كـل باغٍ عُـــتُــلٌ زنيـمٍ ... يعـيشُ ظلومًا، دعـيًّـا، جهـولا

* * *

كـأنـى أراكِ هنا تُـنشـــدينَ ... وحـقـقـتِ فى كل قـلبٍ حُلولا

فكم حاضـرٍ غائبٌ فى الحـضورِ ... وإن مـلأ الكون صيـتًـا وقيـلا!

وكم غـائبٍ حـاضـرٌ فى القلوبِ ... ولو غـــاب عنا طويـلاً طويلا!

وكم من قليلٍ يفوقُ الكثيرَا! وكم كثرةٍ لا تساوى فتيلا!
وكم من طويلٍ عريضِ القفا تراه العيون قميئًا.. ضئيلا!

***

وفى «الثغر» والمدن النائيات رأينا قصيدكِ يسبى العقولا
فأنّا رقيقٌ يحاكى الحريرَ بحسنٍ يفوق النسيم العليلا
وذلك إن عشتِ آل النبىِّ وهِمْتِ كطيفٍ يناجى الأصيلا
وحلقتِ من عتباتِ الرضا وفوق المدى تطلبين الوصولا
وصلْتِ. وبالنسب الهاشمىِّ شرُفتِ، وكان السنا والسبيلا
وآنّا لشعركِ عصفُ الرياحِ يزلزل من نَبْره المستحيلا
كأنك فارسها العبقرىُّ بميدان حربٍ يقودُ الخيولا
تذودين عن ديننا كلَّ عادٍ بشعرٍ يفوقُ القنا والنُّصولا

***

ترفَّعتِ عن عالمٍ من نفاقٍ له شاعرٌ عاش نذلاً ذليلا
يسيرُ بدربِ الهوى والهوانِ ويمضى سعيدًا يدقُّ الطبولا
ويلعقُ أحذيةَ المحسنينَ ويطوى الموائدَ عرضًا وطولاً
ويحيا حياةَ السقوطِ الذميمِ ويبقى لكل المخازى دليلا
فغايةُ غايته أن ينالَ من الأدعياءِ الرضا والقبولا

وعـشتِ «عليـةُ» عصـر الغـوىِّ يُؤمّـرُ فـينا البُـغـاثَ الـهـزيلا
وفيـه النهيـق - على قُبـحِـه - يطاردُ حَـسُّـونَنا والـهـديلا
وللشمس قال الدجى فى غرورٍ: «أراكِ ظلامًـا شـديدًا وبيـلا»
وخنثى الكـلامِ «قـصـيـدةُ نثـرٍ» تهين البـيـانَ، وتُزرى الخليـلا

* * *

رفـضْتِ «عليـةُ» هذا الهـراءَ وأطلقتِ صـوتًا قـويًا مـهـولاً:
«على رِسْلِكم يا أفـاعى البـيـانِ فهـيهاتَ يعلو الفـحيحُ الصهـيلا
ولستُ أرى فـيكمـو من أصـيلٍ ولكن أرى مـسـتـهـينًا عـمـيلاً»
وإن عـشتِ حـربًا على جـهلهم فـقد كنتِ فـينا الربيعَ الجـميـلا
وإن كنتِ كـالشـوكِ فى حلقـهم فقـد عشتِ فينـا الشذا والخمـيلا
ومـثلُكِ فى الخلْـدِ لا لن يموتَ وشـعـرُكِ يبـقى عـليكِ الدليـلا
يُشنِّـفُ أسـمـاعنا والقـلوبَ وينقله الـدهر جـيـلاً فـجـيـلا
ومن كـل قلبٍ إليـك السـلامَ سـلامَ الوفـاءِ زكـيًا جـزيلا

العقادُ..
وَالأَسْوَارُ المنْهَارَةَ(*)

عـبـاس محـمـود العـقـاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) صاحب الـعبـقـريات الإسلامـية، والمؤلفـات التى دافعت عن الإسـلام وفضحت الصـهيـونية والصليبيـة، نرى أن من حقنا أن نرفض مقالاته التى هاجم فيـها الإخوان المسلمين أواخر الأربعينيات، ولكنا نعتـرف أنه عاش يحمل فى قوة وشدة على الطغيان والحكم المطلق والمذاهب الهـدامة، ويدافع عن الدين وحرية الإنسان.. وكرامته. وقـد قطع بأن المذاهب الهدامة - حتى وهى فى أوج انتصـاراتها - تحـمل فى طياتهـا بذور فنائها. وتنبـأ بسقـوطها ومـصارع أربابها. ورأى فى حياته مصرع النازية وهتلر. ونهاية الفاشية وموسولينى. وها نحن أولاء - فى أيامنا هذه - نشـهد سقـوط البقيـة الباقـية من هذه المذاهب ومصارع رعاتها ودعاتها والقـائمين عليها. وكأن العقاد كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

قمْ يا مَلِكْ
يا أَيُّها الثاوِى بأرضِ المجْدِ
فى أسوانَ قمْ
قُمْ يا مليكا عرشُه كانَ القلوبَ

(*) ألقيت فى مهرجان العقاد بمدينة أسوان يوم ٢٨/ ١/ ١٩٨١.

وتاجُه كان الإباءَ
وجيشُه كان القصيدَ
ومدفعيّتُه القلمْ

***

قُمْ وانْفض النومَ الطويل
ولا تنمْ
مَنْ قَال إنك للرقادِ فقد ظلمْ
إذْ ليسَ مثلُكَ للتراب
وللنفادِ وللعدَمْ
لكنَّ مثْلَك للفيالق
والمعاركِ
والتصدِّى
والمبادئِ
والقيمْ
قمْ لا تنَمْ
إن القشاعِمَ لا تقرُّ على الثَّرى
لكنَّ عيشتَها.. وأيْضا موتها
فوقَ القممْ

***

قمْ يا ملكُ
واشهدْ ضحاياكَ الكثارَ
من القياصرةِ الكبارْ
والفلسفاتِ الداعراتِ
العائراتِ
من اليمينِ أو اليسارْ
المنكراتِ اللهَ والإنسانَ
والقلبَ المؤمِّلَ والمنارْ
السارياتِ بغفلةِ العقلِ الرشيدِ
إلى الديارْ
فإذا الحصيلةُ ضَلّةٌ
وعمايةٌ
وتهتكٌ
وتخلفٌ
ودمارُ.. يتبعه دمارْ
قمْ واشْهَدَنْ صَرْعاكَ
خرّوا..

لا ذمارَ . . ولا وقارْ

سحقتْهمو دعْواكَ

والأممُ السجينةُ

حين هبَّتْ نارُها ذاتُ الأُوارْ

غُذِيت بريحٍ صرْصَرٍ

فَغَدَتْ سعيرًا فى سُعارْ

فشهدْتَ مصرعَ بعضِهِمْ

والبعْضُ أنتَ صرعْتَهمْ

مِنْ قبلِ أن يلْقَوْا مصيرَهُمُ البئيسَ

ألا ترى؟

عجبا لمن يُرْدى عَدوَّ الشعْبِ

والقيمِ الرفيعةِ

وهْوَ فى أسوان[1]

مِنْ تحتِ الثَّرى

لكنما لا تعجَبَنْ

ممَّا جرَى

---

(١) أسوان بجنوب مصر هى مسقط رأس العقاد، وفيها دفن.

(فالناسُ صنفان:

موتَى فى حياتهمُو

وآخرون ببطن الأرض أحياءُ)

والحق أنك كنتَ - يا عقادْ -

فى ساحِ الوَغَى

خيرَ الفوارسْ

فكمثلِ طبع الأرْيحيينَ الفوارسِ

أنتَ قد أنذرتهُمْ..

ونصحتَهُمْ

قبلَ النوازلِ والنزالْ:

«صُونُوا المبادئ والقِيَمْ

وارْعُوا الكرامةَ والذممْ

من قبل ثوْراتِ الأممْ

من قبلِ أن تنقضَّ فوقكُمُو

الصواعقُ والحُمَمْ»

لكنهمْ رفضوا النصيحةَ

واستهانوا بالشعوبْ

فبنَوْا من الأحجارِ والفولاذِ
أسوارًا تعزّ على المدَى
قامتْ على الدمِّ الصبيبْ
وعلى الجماجمِ والضلوعْ
وعلى المظالِم والدموعْ
النازفاتِ من الحنايا والقلوبْ
«يا أيها الحكامُ . .
لا أسوارَ تحْمِي الحاكمين من النِقَمْ
فإذا الشعوبُ تحرقتْ
وتَضَرَّم الغضبُ السعيرُ بقلبِها
فتحركتْ
باحَ السعيرُ المنْكَتِمْ
فرمى المظالمَ والجبابرةَ الغُشُمْ
بالعاتياتِ القادحاتِ
من الرجُمْ
فهوَى الغوىُّ المستبدُّ
ولاتَ ساعتَها ندَمْ

لكنَّ سورا واحدًا

يحمِى الملوكَ من العدَمْ

يُدْعَى «بسورِ العدْلِ»

لا سورِ الحجارةِ

والحديدِ المنتظِمْ»(1)

***

كمْ قلْتَ - يا عقادُ -

«إنَّ الفطرةَ الشمَّاءَ

تأبى أنَ يكونَ الآدمىُّ

بآلةِ ترْسًا يدورْ»

كم قلتَ:

«إنَّ الدينَ ليسَ مُخَدِّرا

وغمامةً

وغيابةً

لكنه للعقلِ زادٌ والشعورْ

والدينُ تحريرٌ

(1) أرسل أحد الولاة إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستأذنه فى أن يحصن مدينته بسور يبنى حولها، فأجابه بقوله: «حصنها بالعدل..».

وإبداعٌ ونورْ:

فالعلْمُ فيه فريضةٌ

تزهو على هامِ الدهورْ

وعقيدةُ التوحيدِ

جوهرهُ الوضيءُ المستنيرْ

انظرْ إلى التاريخِ في أبهَى العصورْ

ماذا يقولْ؟

«بالعلم والتوحيدِ

هبَّ المسلمونَ

فيالقًا.. وكتائبًا

تغزو القلوبَ الغُلْفَ

- لا بالظلم والسيفِ المبيرْ -

لكنْ بنورِ العلْمِ والتوحيدِ

والحق النضيرْ

فإذا الوجودُ منارةٌ

وإذا القفارُ المعتماتُ البورُ

جناتٌ وحورْ

هذا هو الدينُ الذى أحْيا المواتَ مِنَ

القلوبْ

كذبَ الألَى قالوا

بأن الدينَ أفيونُ الشعوبْ»

***

قمْ ياملكْ

«البرلمانيون» علِّمْهُمْ هُنا

وهناك فى كلِّ الدُّنا . .

أن «النيابة» أن يكونَ ممثلُ الشعبِ العريقْ

نبضًا أمينْ

ولسانَ صدقٍ لا يخاتلُ

أوْ يجاملُ

أو يهونْ

لا واحدا فى الإمَّعاتِ

الهاتفين الراقصين

أو «فارسًا» فى الناهبين السارقين

الفاسدين المفسدين

قم يا ملكْ

علمْهمو

كيف انتفاضُ الحرِّ بالقولِ السعيرْ

ذكِّرهُمو . . إذْ قلتَ يوما

قولك الفذَّ الخطيرْ

«دستورُ أمتِنا هو العرضُ المفدَّى

والمصونْ

ومن استهانَ به سنسحقُ رأسَهُ

- حتى ولو كان الوزيرْ؟

- حتى ولو كانَ الأميرْ»[1]

***

قمْ يا ملكْ

وانشرْ لواءَكَ مِنْ جديدْ

وابعث فيالقَكَ العتيدةَ

بالعقيدةِ . . والقصيدةِ . . والنشيدْ

مازال ثمةَ باقياتٌ

من جيوب . . أوْ سجونٍ . . أو قيودْ

(١) قالها العقاد فى عهد الملك فؤاد «إن الأمة ستسحق أكبر رأس يقف فى وجه الدستور».

حيث البقيةُ من فلولِ الظالمينْ
تخذُوا من الأنقاضِ والظلماتِ
- كالحشرات - حصنَهمو المهينْ
مازال نبْحُهمو يُلوِّحُ بالوعيدْ
فلْترْمِهمْ
بقذائفِ الكَلِم العتيدْ
فالكلْمة الشماءُ
أقوى من حُصونِهمو الحجارةِ
أوْ عتادِهُمُو الحديدْ
فاهتكْ ستورَهُمو
ودكَّ بقية الأسوارِ
فى حزمٍ عنيدْ
واصهرْ حديدَهُمُو العَضوضَ
وحرر الناسَ الأُلَى اتُّخذُوا عبيدْ
حتى يسودَ العدلُ والشورَى
وروحُ الحبِّ والفكرِ الرشيدْ

***

قمْ يا ملكْ

واشهدْ ثمارا يانعاتِ

قد وضعْتَ بذورَها

ورويْتَها من ماءِ قلبِكَ

والمدادِ الحرِّ

والفكرِ الندىْ

وسهرتَ ترعاها

وتمنحها العطاءَ الفائقَ الثرَّ النقىْ

فاليومَ - يا عقادُ - عيدُكَ

فى الشمالِ

وفى الصعيدْ

قمْ حىِّ هاتيكَ الحشودْ

القادماتِ تلى حشودْ

جاءتْ تُهَنِّئُ نفسَها

فى يومِها الراقى المجيدْ

فى يومِ مولدِك الجديدْ

يوم اليراعةِ

والبراعةِ

والكرامةِ

والأمانةِ

والسيادةِ

والسعادةِ

والخلودْ . .

فاليومَ فى اسوانَ .

بل مصر . .

وأرض العُرْبِ

والأكوانِ عيدٌ

أيُّ عيد!!

***

سلام على الشهيد أكرم زهيرى

المهندس أكرم زهيرى أحد ناشطى الإخوان بمدينة الإسكندرية، يبلغ من العمر قرابة ٤٠ عامًا، قُبض عليه - ظلمـا وعدوانًا - ضمن ٥٨ من الإخوان يوم ١٥/٥/٢٠٠٤، وبسبب التعذيب، وتركه بلا دواء ولا علاج قرابة عشرة أيام وهو المريض بالسكر لقى ربه شهيدًا يوم ٩/٦/٢٠٠٤، وترك زوجة وثلاثة أبناء: دعاء فى الاعدادى، محمد فى الابتدائى، وهدى (٤ سنوات فى الحضانة).

كَـفْـكفى الدمـعَ، واصـبـرى يـا دعــاءُ

لـيـس يـغـنـيـك عـن أبـيـك الـبـكـاءُ

مِـثـلُه فى مـقـامـه لـيس يُـبكَى

فـقليـلٌ على الـشـهـيـدِ الـرثاءُ

أيهـا الراحـلُ الجلـيلُ سـلامًـا

فـعن الأرضِ أكـبـرتْكَ الـسـمـاءُ

عـالـمٌ طـاهـرٌ زكـىٌّ نـقـىٌّ

حَلّـة الصـديقـون والأنبـيـاءُ

فـيـه أمنٌ مـعطّـرٌ لم تشُـبْـهُ

وصـمـةُ الـظلمِ أو هـوًى أو عـمـاءُ

ويحَ قلبي - يا مصرُ - والظلماءُ

قد تمادت فأين منك الضياءُ؟

كنتِ يا مصر دُرةً، كم تغنّى

في بَهاها ومجدِها الشعراءُ

كنتِ يا مصر موْئلا للحيارَى

وملاذًا يَرومه الطُّرداءُ

وأمانًا لكل مَن فقد الأمْـ

نَ، وفيك السلامُ والنعماءُ

و«حقوقُ الإنسانِ» أصلٌ أصيلٌ

قد حمته الشريعةُ الغراءُ

وتولّى نهوضَكِ الحُكماءُ

وتسامى بعلمِكِ الفقهاءُ

***

ثم هبَّتْ على علاك ذئابٌ

ضارياتٌ قلوبُها عمياءُ

فاقت الصخرَ قسوةً وجمودا

ومن الصخرِ قد يفورُ الماءُ

ويح قـلبى - يا مــــصـــرُ - طَمّ البـــلاءُ

والضـــحـــايا أبـناؤك الأوفـــيـــاءُ

صـرتِ - ويحـى - «أبو غـريب»، وفـيـه

أُلقِـيَ الأتقـــيـــاءُ والشـــرفـــاءُ

وعـلى أمـــــرِه يقـــوم طغـــاةٌ

ولإبـليـس حـــــبُّـــــهم والـولاءُ

ممتـعٌ عنـدهم عـــذابُ الضـــحـــايا

ولـذيذٌ دمـــوعُــــهم والـدمـــاءُ

وصـــراخُ الجـــراح هـزَّ رُؤى الفـــجْـ

ـرِ، وريـعتْ لـوقْـــعِـــهِ الظَـلْمـــاءُ

***

قـــتلـوا «أكـــرمَ الزهيْـــرِى» وقـــالوا

«نـحـن مِن قـــــتـله بـرَاءٌ.. بـراءُ»

قلـت «سُـخْـــقًـــا لكـم أيا أدْعـيـــاءُ

كَـذِبٌ مــا زعـمـتـمـو، وافـتــراءُ

إن مـن يتـــــرك المريـضَ يُـعـــانى

تحــــتـــويه زنـزانـةٌ ســـــوداءُ

لا طبيبٌ يُطبُّه، ويواسى

لا علاجٌ يرومه ودواءُ

لهْو - بالغدر قاتل وغوِىٌّ

وهْو فى الغدر حية رقطاءُ

***

أيها القاتلوهُ لم تقتلوه..

فهْو حىٌّ لا يعتريه الفناءُ

إن درب «الإخوان» كنز غنىٌّ

بالملايين.. كلهم «بَنَّاءُ»

كلهم أكرمٌ كريمٌ.. وفىٌّ

طبّعته المبادئُ السمْحاءُ

عزمةٌ حرةٌ وقلبٌ نقىٌّ

وثباتٌ، وعِزَّةٌ وإباءُ

فاخْستوا أيها البغاةُ فإنّا

لا نبالى بما قضى السفهاءُ

والعنيهم يا مصر لعْنًا كبيراً

العنيهم فكلهم.. لُؤَمَاءُ

واسـألـيـهم - إن اسـتطاعـوا جـوابًا -

فلكم ضلَّ سعـيُـهم وأسـاءوا

«أيُّ ذنب جنى فـرُمِّلَتْ الـزوْ

جـةُ ظـلمًـا، ويُتِّم الأبناءُ؟»

ذنبه أنه قضى العمـرَ في الحـقْ

شريفًا لم تغـرهِ الأهـواءُ

ولقـد عـاش شـامخًا وأبيًّا..

لا نفـاقٌ يَغُـرُّه، أو ريـاءُ

زاهدًا في المتـاع لم تسْـتـمله

متعـةٌ لا ولم يُمِـلْه ثـراءُ

مـؤمنًا بالجـهاد خـيرَ سـبيل

ولقـاء الإلـه فـيـه رجـاءُ

وبأن القـرآنَ دسـتـورُ عـدْلٍ

خالدٍ شـامـلٍ، وفـيـه الشـفـاءُ

وبـأن الإسـلامَ دينٌ وسيفٌ

ونـظـامٌ ودولـة وقـضـاءُ

وبأنّ الرسـولَ قـدوةُ خـيـر

وزعـيمٌ، مـا غـيـرهُ زعـمـاءُ

تـلك مـــــشكاةُ دعـــــوةِ الحـقِّ والنـو

رِ. وفـــيـــهـــا النجـــاةُ والإحـــيـــاءُ

عـــاشَـــهـــا «أكـــرمُ الزهيـــرِى» وفـــيًّـــا

فلـهـــا - لا لغـــيـــرِهـــا - الانتـــمـــاءُ

***

فـــاخْـــســـئـــوا أيهـــا الطغـــاةُ فـــإنّا

لا نبـــالى بمـــا قـــضـــى العـــمـــلاءُ

والعنيـــهم يا مـــصـــر لعنًا كـــبـــيـــرًا

العنيـــــهـــم فكـلـهم لـؤمـــــاءُ

واســـأليـــهـــم إن اســـتطـاعـــوا جـــوابًا

فلـكمْ ضلَّ ســـعـــيـــهـــم وأســـاءوا:

«هل أعـــدْتم بقـــتل أكـــرمَ مـــجـــدًا

لبـــلادى فـــحـلَّ فـــيـــهـــا العـــلاءُ؟

هل مـــســـحـــتمْ بقـــتله دمـــعـــة الشـــا

كى، فـــولى الضَّـنىَ وفـــرَّ الشـــقـــاءُ؟

هل قـــتلـتم بقـــتلـه الجـــوع والفـــقـ

ـرَ، فَـــقَـــرَّ الجـــيـــاعُ والـفـــقـــراءُ؟

هل فتحتم بقتله القدسَ والأقـ

صى فعزّ اللواءُ والإسراء؟

هل أعدتم بقتله لحمانا...

ما أضعتم فعزت الضعفاءُ؟»

بل رأينا الأصفار تهْمي عليكم

ثم هُنتم كما تهونُ الإماءُ

فبأيديكمُو غدتْ مصرُ صفراً

فازدرانا الأعداءُ والأصدقاءُ

نزع الله من قلوب الأعادى

أن يهابوكمو، وأنتم غُثاءُ

وشغلتم بحب دنياكم العُمْـ

ـرَ، وعشتم قلوبُكُم عمياءُ

و«حقوق الإنسان» كِذبٌ وزورٌ

وادعاءاتٌ، وهْى منكمْ بَراءُ

***

فاشْكُ يا «أكرمُ الزهيرى» لربٍّ

عادلٍ عنده يجابُ الدعاءُ

وافـخـرى زوجـةَ الشـهـيـد بزوجٍ

مـا انـحـنتْ منه جـبـهـةٌ شـمـاءُ

عـاش لـلحقِ مـخـلصًـا وأمـينًا

يـبـذلُ الـنـفسَ إن دعـاهُ الـفـداءُ

وهنـيـئـا - يـا آل أكـرم - بُشْـرى

يا «هدى» يـا «مـحـمـدٌ» يا «دعـاءُ»

بـأبيـكـم غـدا يـكون الـلـقـاءُ

فـى جنـان الخـلـود. نعـم الـلـقـاءُ

***

الشهيد عبدالله عزام
الفارس الذى صعد

كان أول لقائى بابن فلسطين الدكتور عبدالله عزام فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٨١ فى مدينة «سبرنج فيلد» بولاية ألينوى بالولايات المتحدة حيث عقد مؤتمر الشباب المسلم العربى، وكان شعار المؤتمر «القدوة الحسنة»، وقد حضر الدكتور عزام ممثلا لمجاهدى أفغانستان فى المؤتمر. وكان لقاؤنا الثانى ولقاءاتنا التالية فى الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد ١٩٨٥ حيث كنا نعمل، ثم ترك الجامعة سنة ١٩٨٧ وتفرغ تمامًا لتحمل أعباء الجهاد الأفغانى. وبعد انتهاء إعارتى عدت إلى مصر فى يونيو ١٩٨٩. وبعدها بأيام علمت أنه استشهد هو وابناه: محمد وإبراهيم بعبوة ناسفة فى مدينة بشاور الباكستانية قاعدة المجاهدين فى باكستان.

(١)

يا عبدَ اللهِ يا عزامْ

أنا أدعوكَ...

أناديكَ

فهل تسمعُنِى؟

هل تسمعُ صوتى

هل تسمعْ؟
فى عالمكَ العُلْوىِّ الأرفعْ؟
وأنا فى غربةِ روحى
فى وطنى
أتحسسُ طينى
قيدى العاتى
دنيا الناس الصماءِ الجوفاءْ
هل تسمعْ؟
هل تذكرنى؟
هل تذكرُ أول لُقيانا؟
قد كان لقاءً مشهودا

(٢)

من عشرة من الأعوام قد عرفْتهُ
خلفَ البحارِ فى مناطقِ الجليدْ
فى العالَمِ الجديدْ
فى بلدةٍ تدعى «سبرِنْج فيلْدْ»
كانَ اللقاءُ الأولُ

والأرضُ والأشجارُ بيضاءٌ من الجليدْ

والجوُّ فى برودةٍ تُجمّد البشَرْ

وتُرعِشُ الحديدَ والحَجرْ

لكنّما

من كلِّ فجٍّ فى «أميرْكا» قادمونْ

المسلمونَ يزحفون

وبالألوفِ يزحفون

«فى بلدةِ الجليدِ مؤتمرْ

شعارهُ:

«بالقدوةِ المثلى نصلْ..

وننتصرْ»

ويومَها...

أحسستُ أن الدفْءَ يَعمُرُ القلوبْ

ويغمرُ الإحساسَ بالربيعِ

والعبير... والأملْ

«لا إله إلا اللهْ

محمد رسول الله

عليها نحيا

وعليها نموتْ

وفى سبيلها نجاهدْ

وعليها نلقَى اللهْ»

وعندها ترقرقتْ فى مقلتىَّ دمعةُ الفرحْ

رأيتُهمْ . . .

وعشتُهمْ

رأيتُ حمزةً يمزِّقُ الصفوفْ

وخالدًا بسيفِهِ

يوزِّعُ الحتوفْ

والفرسُ والرومانُ يَفْزعونْ

قلوبُهُمْ تحاولُ الفرارَ من صدورِهمْ

ولاتَ حينها فرارْ

وفى عيونهم مذلةٌ يروُعُها انكسارْ

سمعتُهُ . . وعشتُهُ . . بلالْ

يزلزلُ الحصونَ والجدرانْ

بعزَّةِ الإيمانِ فى حلاوةِ الأذانْ

ومصعبًا يرتلُ القرآنْ

فتقشعرُّ من خشوعِها القلوبُ والأبدانْ

ويلتقى الزمانُ بالزمانْ

والدفءُ يَسْرى من جديدْ

فى بلدةٍ تُدْعَى «سبِرنجْ فِيلْد»

مدينةِ الجليدْ

إحدى بلادِ الأمرِكانْ.

وفجْأةً

سمعتُ صوتَهُ

مُدمْدِمًا وهادِرا

وبالضياءِ عامرا

«عزامُ.. يا عزامُ.. قُلْ

فالحفلُ كلُّه مَعَكْ

ومنصتٌ إليك.. لن يَمَلّ»

- يا أمةَ الإيمانْ

قد جئتكمْ.. فى جعبتى رسالةٌ

من مسلمى الأفغانْ

من أمةٍ قد أقسمتْ
أن تسحقَ الكفرَ العتىْ
أن تهتكَ الظلمَ الغوىْ
أن تُطلعَ الفجرَ الندِىْ
فى دولةٍ دستورُها القرآنُ
زعيمُها النبىْ
سبيلها الجهادْ
والموتُ فى سبيل اللهِ قمةُ الأملْ
وغايةُ النضالِ والزُّحوفِ والعملْ

(٣)

أما اللقا الثانى فكانَ فى «إسلامَ بَادْ»
فى الجامعةْ..
للعلمِ والأدبِ الرفيعْ
والفقهِ والقلب الربيعْ
كنا هناكْ
ألقاه مبتسما فأبتسمُ

يُلقى التحية والسلامْ

ويُغِذّ نحوَ الفصلِ سيرَهْ

(٤)

ثم اختفَى فسألتُ عنه

فقيل:

- لا تبحثْ هنا، وابحثْ هناكْ

- وما هناكْ؟

- حيثُ المدافعُ والخنادقُ والصخورْ

حيث الكفاحُ المرُّ يحكى ملحمَةْ

كُتِبتْ بماءِ القلبِ والأعصابِ

والأشلاءِ والعزم السعيرْ

فهناك خالدُها

وسعدٌ

والمثَّنى

والكتيبةُ

والنذيرْ

يتقدمون بفتيةِ الأفغانِ

فى زحفٍ خطيرْ
و«عُقابُ» سيدِنا رسولِ اللهِ
فَوقهُمُ ترفرفُ كالهديرْ
ليحققوا النصرَ الكبيرْ
أو موتةً تزهو على الأكوانِ
«أنْعِمْ بالمصيرْ»!
«عزامُ» فى هذِى الكتيبِة فى بَشاورْ
أو عند «غزنةَ» أو «هرات» و«قندهارْ»
ليلاً هُنا، وهناكَ فى ألَقِ النهارْ

(٥)

وقرأتُ فى صحفِ الدعارةِ
والخيانة و«الدُّلارْ»:
«القدسُ مسرَى المصطفى
عزامُ يتركها يمزقُها ويحرقها اليهودْ
كيما يقاتلَ ها هنا
لم لا يجالدهمْ هناك؟
عزامُ.. يا عربىُّ

فلتجعل جهادَك للعربْ»

ويجىءُ يَا «عزام» ردُّك صاعقا:

«أنا من هنا. . .

وأنا كذلك من هناكْ. . .

أبى الإسلامُ لا أبَ لى سواهُ

إذا افتخرُوا بقيس أو تميمِ

جنسيتى الدينُ الحنيفْ

قوميتى الدينُ الحنيفْ

وولاؤنا لاثنين لا يتزعزعُ:

لإلهنا ورسولِنا

والحقُّ فى أعماقنا يتربعُ

والأرضُ أنَّى ما تكون

هى أرضُ كلِّ المسلمينْ

ما دام يسكنُها مُوَحِّدْ

القدسُ مثلُ «جلالِ بادَ» و«كابلٍ»

ودمشقُ أو بغدادُ واليمنُ السعيدُ

كقَندهارْ

والمسلمُ الحرُّ الأبىْ

إما يرى الأهواء بالقادات تلْعبْ

والشهرةَ الجوفاءَ فى ساحاتها

أملاً ومطمعْ

راياتهُم عُمّيةٌ

ورياحهمْ شرقيةٌ غربيةٌ..

فى هذه الحالِ التى تُنْدِى الجبينْ

المسلمُ الحرُّ الأبىْ

لا يطمئنُ لغير راياتِ النبىْ»

(٦)

سألتهمُ...

القادمينَ من هناكَ من بشاورِ

عن فارس.. عرفْتهُ.. صحبتهُ

فما غدرْ..

عاشَ الحياةَ قمةً تلامسُ القمرْ

فما انحنى.. وما انكسرْ

بل كان دائمًا

فى رحلةِ العناءِ ينتصرْ

كأنما من طينةٍ قد صيغَ

غير طينةِ البشرْ

فعالمًا عرفتهُ

يقينُهُ باللهِ والكتابِ والرسولِ

والقضاءِ والقدرْ

كموجة العبير فى نَقاوة المطرْ

أما الرضاءُ بالهوانِ عندهُ

فسقطةٌ لا تُغتفرْ

وفارسًا عرفتُهُ

إذا عزمْ . .

فقد هجمْ

وإن هجمْ

فقد قصَمْ

كأنما النصر الأبىُّ

فى حياتِهِ قسَمْ

وكان بينهَ وبين شرعةِ الجهادِ

مثلما قرابةِ الرحِمْ

ففى الجهادِ كِلْمتُهْ

وللجهادِ عزمتُهْ

وللجهاد غضْبتُهْ

وللجهاد ثورتُهْ

وللجهاد غُربتُهْ

وللجهادِ نومتُهْ

وللجهادِ يقْظَتهْ

سألتُهُمْ. . .

القادمين من بشاورِ:

وكيف ماتْ. . ؟!

فبعضهم أجابنى:

«كَبَا به الجوادُ فى غَيابة الغبارِ

فانكسرْ. . .

فحاولَ امتشاقَ سيفِهِ

مكبّرًا. . وراجلا. . .

لكنهُ القدرْ

فمقبض الحسامِ في يمينه انكسرْ
وكَفُّه كانت تجودُ بالدماءِ كالمطرْ
فقَرَّ فى مكانِهِ
ولم يفرْ
وصاح صيحةً كأنها البركانُ
والزلزالُ والنذُرْ:
«لن أنْقهرْ. . .
«لن أنْقِهرْ. . .»
ومدَّ كفَّهُ العصماءَ لابنِهِ محمدٍ
وبعدَها ماذا حَدَثْ؟
لا أعرِفُ. .
فذاك غيبٌ لم أرهْ. .
لكننى وجدتُ فى مكانِهِ
حيثُ انفجرْ. . .
بُقَعًا منَ الدماءِ
والمضاءِ
والإباءِ

والضياءِ

تبتسمْ

(٧)

لكنَّ واحدًا يقول غيرَ ما سمعتُهُ:

«رأيتُهُ فى ليلةِ الضبابِ

وهو يُبحِرُ...

ويضربُ المجدافَ فى اللُّجَىْ

لا يَنى.. لا يفترُ

والموجُ فوقَ الموجِ

مظلمُ الأحشاءِ

ظالمٌ.. مدمرُ

لكنَّهُ - رأيتُهُ -

يعاندُ الرياحَ والتيارَ

والصخورَ والدُّجَى

يَمْضى...

ويضربُ المجدافَ فى اللُّجّىْ

بعزمه الصخرىْ

ناديتُهُ فى فزعةٍ ملتاعةٍ
جريحةِ الصدَى
والظلمةُ العصوفُ تستبدُّ
والموتُ فى أحشائِها
معربدًا يمتدُّ . . .
«عزامُ . . يا عزامُ . .
كيفَ تعاندُ؟!
لا تبحرَنَّ ضِدَّهُ . . .
فإنهُ معربدٌ . . وفاجرُ
أوْ دعْهُما : محمدًا وإبراهيمَ
فى الضفافِ
للحياةِ والشباب والأملْ»
لكنهُ بابنيهِ قد أصرَّ أن يمرْ
وساخِرا . .
من الضباب والظلامِ والتيارِ . . مَرْ
سمعتُهُ مهللا مكبِّرا
من خلفِ جدران الضبابِ القاتم

«الله أكبرُ...

قد وصلْنا...

لا تُرَعْ

لا تركَنَنَّ للهمومِ.. والفزَعْ»

وفجأة.. صَمَتْ.. صَمَتْ..

ناديتُهُ.. فما سَمِعْ

وما سمعْتْ

لكننى..

علمتُ أن صخرةً سوداءَ

كالظلامِ.. خائنةْ

قد حطَّمَتْ سفينتَهْ

ومزقتْ شراعَهُ

وبعثرتْ دماءهُ

فأعجزتْ دفاعَهُ

وبعدَها...

رأَوْا هناكَ فى الظلامِ

فى مكانِهِ حيثُ انفجرْ

بُقَعا من الدماءِ

والمضاءِ

والإباءِ

والضياءِ

تبتسمْ

(٨)

أما أنا

فإننى رأيتُهُ

نحو السماء صاعدًا وراقِيا

حاولتُ أن ألاحقَهْ

وأدرِكَهْ

لم أستطعْ

فقد دهانِيَ اللهاثُ

والإعياءُ والوهَنْ

ألسْتُ فى غيابةِ العبيدِ مرتَهنْ

تشدّنى للقاع والضياعِ طينَتى

مجنونةً عطشَى لظلٍّ زائل

فى دُنْيتى..؟

لذاك تاهتْ صيحتى...

رأيتُهُ

وفى يمينِهِ عزيزُه محمدٌ

وفى يساره الحبيبُ إبراهيمْ

وصوتهم تكبيرةٌ علويةٌ:

«الله أكبرُ يا صحابْ..

جئنا لها..

فزْنا بها..»

ناديتُهُ:

«مهلا.. أبا محمدٍ..

خذنى معك..

لكنه فى سرعة الضياء

راحَ وانطلقْ

مجاوزاً نهرَ المجرةِ والفَلَكْ

لسُدَّة علويةٍ

أرقى من الأقطارِ والسماءِ

لا تحدّها مشاعرٌ ولا بصرْ

وخلفَهُ

رأيتُ شلالا من الدمِ الزكِيِّ

والمضاءِ

والإباءِ

والعلاءِ

والضياءِ

يبتسمْ . .

البَحْثُ عَنْ قَبْرِ لعزِّ الدين القَسَّام
مطولة درامية حوارية

(١)

أحملُ مصباحَ «ديوجينَ»، وأمْضى

روحًا هيمان

أبحث عن رجل بين الأحياءْ

يا من يهدينى لطريقٍ

يحملنى للإنسانْ!!

للرجل الإنسانْ!!

لكن النهرَ الفياضَ بوطنى صارَ عقيمًا

لا ينجبُ إلا الفقاعات

والأرضَ المعطاءَ الحبلى

ما عادت تنبتُ إلا القاتْ..

والمعتقلات

يا من تحملُ مصباحك فى التيه الأعظم

إن تهتف فى عصر الغربةْ:

«لا قوة إلا بالله. . .»

تخرِسُكَ ألوفُ الأصواتْ:

«لا قوة إلا بالعُزّى. . .

لا قوة إلا باللاتْ. .»

فالعصرُ مَواتْ

عصرُ الأنطاعِ الأوثانْ. . .

عصرُ الخصيانْ

عصرُ العُرجانِ العِميانْ

لا عصرُ الرجلِ الإنسانْ

***

يا شاعرَ عصرِ الغربةِ. . والكربْة

أطفِئْ مصباحَكْ

وَفّر زيتكَ

وتوكلْ

لا تبحثْ عمَّن تطلبُ فى الأحياءْ

من تبحث عنه استُشْهِدَ. . ماتْ

منْ تبحثُ عنهُ محضُ رفاتْ

اطلبْه هناكْ

فى أرضِ المسْرَى فى الأمواتْ

(٢)

يا عزَّ الدين القسّامْ

يا ابنَ الإسلامْ

يغلبنى الشوقْ

يهتف فى أعماقى صوتٌ من أعماقِ الغيبْ

يهزُّ كيانى

كى أسعى نحوكْ

أن أمضى للقبر الثاوى فى أرضِ المسْرى المنهوبة

أستنشقُ عَبَقَ المجدْ

فى طِيبِ اللحدْ

***

لكنْ قَالُوا لى:

«حتى تجتاز حدودَ الوطن إلى الأرضِ المسلوبةْ

إذنُ الملِك المنصور ضرورةْ.

تذهبُ للقصر العامِر

وتسجلُ إِسمك فى دفترْ

يُسْمَى بسجلّ التشريفاتْ
تحت عباراتٍ تكشفُ عن إخلاصٍ وَافٍ
لا أيٍّ عباراتْ؛

***

لكنْ. . .
لا أدرى ماذا أكتبْ
ولقد عشتُ شريفًا
وعفيفًا
أُمضى سنواتِ العمرِ رفيعَ الرأسِ نظيفًا
ملكًا يحتقر التاجْ
مملكتى قلبٌ نبوىٌّ
وسلاحى قلمٌ نووىٌّ
لم ينبض إلا بالحق
ينشقّ الصخرُ ولا ينشقْ.
لكنَّ كرامةَ ذاتى مهما عَظُمتْ
يغلبها الشوق إلى الأحباب
فى عصر يحكمهُ الخصيان بِشرع الغابْ

معذرةً يا نفسُ

هونْى لحظةْ

أو لحظاتْ

من أجل شهيدٍ ظلَّ يقاتلُ حتى ماتْ

(٣)

[مسئولُ التشريفات -على ما يبدو- رجل طيِّبْ

استنتج أنى قرويٌّ طيّبْ]

أملانى. . اكتُبْ:

«مولاىَ الملكَ المنصورَ. . طويلَ العمرْ

يسعدنى أن تأذنَ لى

أن أرحلَ لزيارة قبر عزيزٍ ماتْ. .

استشهد. . . . »

- [ويرن التلفون بحجرة رجل التشريفات

يتوقف رجلُ التشريفات عن الإملاء

يظهر أن المتحدث ذو حيثيَّة

فرئيس التشريفات

نبرته فى الهاتف جدٌّ خفيضة

تتدفقُ بالأدب الجمْ

ماذا لو أكملُ شخصيًا باقى الفِقْرة

مادام سيادته مشغولاً. . .

أكملت]:

«استشهدَ من زمنٍ زاد على نصفِ القرنْ

فى أرض الأقصى المسلوبة

وأخيرًا أدعو لجلالتكم بالسعدِ وطولِ العمرْ»

توقيع:

المخلص جابرُ «إبنُ» قميحةْ

أستاذ فى جامعة تدعى «عين الشمس»

والألسُن اسم الكلية

ومعارٌ للعام الخامس فى الجامعة الإسلامية

(٤)

[رجلُ التشريفاتْ

يضعُ السماعة فى عصبيّةْ]

-هيه. . أسْمِعْنى ماذا أمليتُ عليك

- أمليتَ سيادتُكم جزءًا

وشُغلتم بالتلفون..

أكملتُ أنا الباقى حتى لا أهدرَ وقت سعادتكم

- أسمعنى كلَّ المكتوبْ

- «مولاى الملك المنصورَ.. طويل العمرْ

يسعدنى أن تأذن لى

أن أرحلَ لزيارة قبر عزيز ماتْ

استشهد من زمن زاد على نصف القرن

فى أرض الأقصى المسلوبة

وأخيرًا أدعو لجلالتكم بالسعدِ وطولِ العمرْ»

توقيع:

المخلص جابرُ «إبنُ» قميحةْ

أستاذ فى جامعة تدعى «عين الشمس»

والألسُن اسم الكلية

ومعارٌ للعام الخامس فى الجامعة الإسلامية

***

[ويثورُ رئيس التشريفات بصوتٍ كزئير الريحْ]

- يا عجبًا.. تعجلُ فى إكمال كلامى بكلامٍ لا يحملُ معنًى..

عندكَ أولاد؟

-خمسةْ. . . غيرُ رفيقة عمرى. . . الزوجة

- أتريدُ ترمُّلُ زوجَكَ يا مسكينْ؟

- أتريدُ تيتُّمُ أولادك؟

أوْ فى أحسن فرضٍ تغلقُ أبوابَ المستقبل فى أوجُهِهمْ؟

كلماتك حتى الآن. .

لا تكشفُ عن جوهرِ إخلاصِك

- ماذا أفعل؟

أشْطُبُ ما خطَّت يمناىَ. .

وهذى المرة لا أكتبُ إلا ما تُملى

-هِهْ. . أستاذٌ فى جامعةٍ يجهلُ

أنَّ الشطبَ بمستندٍ رسمىٍّ يعتبرُ جريمةْ!!

وسجلُّ التشريفات

فى قانون الدولة - إن لم تعلمْ-

أعلى مستندٍ رسمىْ

لكنْ. . . أكملْ. . . اكتبْ:

«ملحوظة:

مثل العنوانْ. .

تُكتب فى الآخر لكنْ فى الأول تُقْرأْ

ما أنسانِيها الشيطان

بل أنسانيها شدة إحساسِى . .

فيضُ شعورى

بجلال الملك المنصورْ

يا منصورُ أدامَ الله بقاكْ

وأذلَّ اللهُ عِداكْ

أنا لا أنتسب لحزب أيًّا كانْ

وليسَ وراء زيارة هذا القبرْ

ما يدعوهُ الناسُ سياسة

أفديكَ -طويلَ العمر- بروحى وبأولادى

وبآبائى، وبأجدادى، وبأحفادى، وبجامعتى،

وبما تملك -يا منصور- يمينى

التوقيع: المذكور بأعلى الصفحةْ

(٥)

[وهنالِكَ فى صدرِ البهو الأعظم

وعلى عرشٍ من ذهب إبريزْ

كانَ طويلُ العمرِ مهيبًا يجلسْ

ولأنَّ الملكَ المنصورَ يحبُّ الشعرْ

صدح الشعراء بما نظموا

كانوا قيعانًا . . غربانًا

نعبتْ بنقاقٍ منكوسْ

القاع الأول:

خيبان بن الهايف. . . يمضى فيقول:]

بسـيـفك يـعلو الحـقُّ والحقُّ أغـلبُ
وترعـبُ إسـرائـيلُ إن شـئتَ تضـربُ
فـسيـفُك من نارٍ تَمـجُّ. . لهـيـبَـهـا
وليس لـهم من نار سـيـفك مـهـربُ
إذا كـان ديـنُ القـوم غـدرًا وخـسـةً
فـإن الجـهـادَ المرَّ عندك مـذْهبُ
بسـيـفكَ يا منـصـور أنـتَ مُـغَـلَّبُ
وشـارون مـقـهـور ذلـيلٌ يُغَـلَّبُ
وشـتـان مـا طودٌ أشمُّ وقـاعُـه
وشـتـان مـا ليـثٌ هصـورٌ وأرنبُ

***

وسمعتُ القاعَ الثانى

عنينَ بنَ المجبوبِ يقول:

مــــا شــئتَ لا مــــا شــاءتِ الأقـــدارُ

لا ســـيفَ إلا ســـيـــفُـك البـــتَّـــارُ

فـــرِّقْ بسيــفكَ جـمعَ كلِّ كـتـيـبـةٍ

فـــالســـيـفُ فى يمـنَاك عـــزمٌ نارُ

ولأنت منصـــورٌ وغــيــرُك مـــدبرٌ

متـــعـــثـــرٌ، متـــمـــزقٌ، منـهـارُ

يا أيـهـــا المنـصـــورُ دمْتَ مظفّـــراً

حـــتى يُـنَال عـلـى يديـك الثَّـــارُ

***

وسمعتُ القاع الثالث: وسنانَ بنَ الهرمةِ يُنشده:

إذا نطـقَ الأعـــداءُ فـــهْـــو هُــراؤهمْ

وإن نطـقَ المنصـــورُ فـــهـــو جـــهـنمُ

وســـيـــفَكَ إن تَرفَـعْ بوجـــه عـــدُوِّنا

تهـــتَّك وجـــهُ الليـل والليـلُ أبـهَمُ

ويُذْهَـلُ «شـــارون» إذا مـــا بَـدَهْتَـــهُ

فـــــلا قلبُـــــه قلْـبٌ ولا ينـطقُ الـفمُ

إذا مـا عـــزمتَ العـزمَ ذابَـتْ جـيـوشُـــهم

فلـيسَ يُـرى إلا الجـــــمـــــاجِمُ والـدم

(٦)

يا عزَّ الدين القسامْ

يا بنَ الإسلامْ

ما اهتزّت نفسِى للشعراءِ الغربانِ

القيعان

جوقةِ كل بلاطٍ فى كلِّ زمانْ

لكنى اهتزّ كيانى الموجوعُ

وتَمزق قلبى المصدوعُ

إذ أسمعُ سيفَ المنصورِ

ينشج فى صوتٍ مصدور

يتحدث بالهمس المخنوقِ لَغمده:

- أطلقنى

لله... ولوْ لحظةْ

فُكَّ إسارى - يا غمدُ- ولو لحظةْ

إنى أختنقُ وأحتضرُ

من سنوات

وأنا فى لحْدكَ أحترقُ

وعدًا منِّى

أطلقنى أتنفسُ لحظةْ

ثم أعودُ إليك

- لا . . لا أقدرُ يا مسكينُ على ذلكْ

فأنا أعلمُ

- إنك أيضا تعلم يا مسكين -

أنك عبدُ المأمورْ

وأنا لا أعدو كونى عبدَ المنصورْ

أنا يا خدْنى ما أغمدتك طوْعًا فى أحشائى

فوجودُك يحزننى . . يُؤلمنى

يُدْمى بنْيانى . .

يُصْدئُ جُدْرانى

لكنَّ الملكَ المنصورَ طويلَ العمرْ

أصدر فرمانًا مرقومًا

بالسابع والستينَ وتسعمائةِ بعدَ الألفْ:
نصُّ المرسوم- على ما أذكر-:
«باسم الشعْب
مرسومٌ لا يقبلُ نقضًا أو إبرامْ
يُتحَفَّظُ فى الغمدِ على سيفِى هذا
إكرامًا لجلال السيفْ
[تفسير]:
قد جاءَ قرارى - نحنُ الملكَ المنصورْ-
من منطلقٍ إنسانىٍّ بحتْ
فأصونُ جلالة سيفى أن تتنجَّسَ بدم الكفار
وأنا الملكُ الطاهرُ من نسل الأطهارْ
أجنحُ للسلْمْ. ما أبشعَ -فى نظرى- لونَ الدمْ»

(٧)

يا عزّ الدين القسامْ
يا بنَ الإسلامْ. .
وتركتُ السيفَ بقصر الملكِ المنصورِ
يجودُ بآخرِ أنفاسهْ

وشهدتُ الخيلَ بساحةِ قصرِ المنصورِ

طويلِ العمرْ

تتثاءَبْ . . .

تَتمطّطْ . . .

تتمرغُ فى أعشابِ الذلْ

تثقلُها أسرابُ ذبابٍ ترقدُ فى أعينِها

تمتصُّ الباقى من لمعانٍ وبريقِ

ورثتهُ من خيلِ الخندقِ واليرموكْ . . .

سَلها . . صدّقنى

غشيتْ أعينُها فى ليلِ القصرِ

حبيسةَ ذلٍّ وخنوعْ

ما عادتْ - يا عز الدينِ - تشاهدُ صُبحًا

أو تضبحُ ضبحًا

أو تورى قدْحًا

أو تبعث نقعًا

أو تتوسط جمعًا

. . . فأتيتُ إليكْ

أبكيكَ بماء القلبِ . . وأبكينى
علَّ دموعى تطفئُ ما يجتاح ضلوعى
من أوجاعى
أبكى سيفًا يستصرخُ
مخنوقا . . محروقا فى زنزانةِ غمْدْ
أبكى خيلاً سلخوا منها الصهواتْ
نسيتْ معنى الكرْ
ومعنى الفرْ
ومعنى الأمْرْ
ومعنى النهضة للنجْداتْ
نسيتْ شكلَ القائدِ والفرسانْ
فى زمن الذلة والغَثَيانْ
زمن القيعانِ الغربانْ
والخصيانْ

(٨)

لكنْ ضلَّت قدماىَ إلى قبركْ
ربَّاهْ . . .

إنى لا أجهلُ هذا القبرَ فكيفَ أضِلْ!!؟

. . . ربّاه!!!

ورأيت بكفٍّ صَبىٍّ صهيونىٍّ شاهدَ قبرِكْ

وعليه بقايا خط منقوش

«. . . هذا قبر البطلِ القسامْ

. . عزٌّ الدين القسَّام . .

استشهِدَ فى الـ . . . . . »

والباقى مَمْحُوٌّ - يا عزَّ الدين - من الشاهدْ

والشاهدُ فى كف الطفلِ الصهيونى

مضربُ كرةٍ يلهُو بهْ

- يا ولدى . . .

إنى من وطنٍ يُدّعى «الوطنَ العربىْ»

- العربىْ؟؟!!

لكنَّ مدرِّسةَ الجغرافيا

قد أنهتْ مَنْهَجَهَا الأمْسْ

ما ذكرتْ أنَّ خريطةَ هذَا العالم كُلِّه

فيهَا وطنٌ يُدْعَى الوطنَ العربى

- لا يا ولدى... وطنٌ ذو علمٍ مشهورْ
ومليكٍ يُدْعى المنصورْ..
- منصورْ؟؟! شَىْءٌ مُضْحِكْ.
أستاذ التاريخْ
لم يذكرْ شيئًا عنْ شَىْءٍ يُدْعَى المنصورْ
- يا ولدِى.. دعْنَا.. مِنْ هذا
تتكرمُ.. تُعطينى الشاهدْ؟!
- شاهدْ؟؟!!
- تعطينى اللوحَ الحجريًا
- أوهْ!! تَعْنى المَضْرِبْ؟!
- أعنى المَضربْ...
- لا... لا أقدرْ...
أختى وجدَتْهُ خلْفَ الحانةْ...
هَذِى الحانة
ومحونَا وَسَحَنًا أسودَ... كانَ عليه
نُقطًا... وحروفا لم نفْهمْها
لكنْ مازالتْ فيه بَقيَّةْ...

وَعَدتْنى أمِّى أن تمحُوَها. . بالسكّينة أو ماء النار

- تعطينى المَضْرِبَ يا ولدى بمقابل قطعةِ شكلاتهْ

- شكلاتهْ؟؟!

أمى تَنْهانى عنْ أكِل الحَلْوى والشكَلاتهْ. .

انظرْ أسْنانى -قالت أمى-

تتآكلُ مِنْ أكل الحلْوى

- لا حلْوى. . .

تعطينى المَضْرِبَ. . . أعطيكَ جنيهًا

- ولماذا؟

- لى ولدٌ مثلُك أُهديه المضربَ فى عيد الميلادْ

- لكنْ يمكنُك بهذا المبلغِ. . . بلْ نصفِه

أن تحضرَ أجملَ بكثيرٍ من هذَا اللوحِ الحجرىِّ

- يا ولدى. . .

عجبًا أن ترفضَ أن تعطينى شيئًا

- فى الواقع - لا قيمة لهْ

- إن كان صحيحًا ما تذكرْ

فلماذا تدفع فيه جُنْيه؟

- يا ولَدى.. إنى.. أصلى.. أعنى.. لكنْ.!!

لكنى أبْغى هذَا المضربَ بالذاتْ

- لا أقدرُ

قالت لى أمّى: «إنَّا فى وطنى الأعظمِ إسرائيلْ

لا نمنح شيئًا للغرباءْ

أن نأخذَ.. آهْ

أن نعطىَ.. لا

فالأخْذُ غَنيمةْ

والَمنْحُ - كما قالت أمى - إِثمٌ وجريمةْ

أستاذ التربية القومية فى مدرستي كرَّر ذلك

(٩)

يا عزَّ الدين القسامْ

يا بنَ الإسلام

فى ساحة قبرك ما عادَ هنالكَ قبرْ

لكنَّ مكان القبرِ بناءٌ يسبحُ فى الأنوارْ

وأمامَ المبنى لافتةٌ زِينتْ بالأزهارْ:

حانةُ كوهين الكبرى

الحانةُ تسهرُ حتى الفجرْ
موسيقا.. وعشاءٌ راقصْ
برنامج حافلْ
«داليدا» تشدو
أغنية ما غنتها قبلُ بحانةْ
اسمُ الأغنيَّة «كعكُ العيد»
لحنها الموسيقارُ الأعظم
... «شامُوْبيد»
وقرأت هنالك أيضًا
فى لوحة برنامج هذى الليلةْ
«سالومى فى رقصةِ عِشقِ
ما رقصتها إلا سالومى التوراةْ
(رأس يُحَنا) إسمُ الرقصَةْ
بعدَ الرقصةِ تُطفأ فِي الصالةِ كلُّ الأنوارِ
لخمسِ دقائقْ

(١٠)

يا عز الدين القسَّام
يا بنَ الإسلامْ

وهنالك بعد الليل الفاجرْ

سقطَ القوم نشاوَى

وزحفتُ أعانِى سُكرْ النكبةِ والمأساةْ

ونبشتُ الجدرانْ

وحملتُ رفاتَكَ من قاعِ الحانْ

وزحفتُ بأرض فلسطين وأرضِ العربِ المسروقَةْ

أبحثُ عن قبرٍ . . .

كهْفٍ . . .

شبرٍ فى الأرضِ

أوارى فيه رفاتَكْ

لكنْ أعياني البحثْ

أدمَى قدمَىَّ الإعياءْ

ما عاد هنالِك فى الوطنِ العربى مكانٌ

يتسعُ لقبر شهيد

أرضُ الأوطانِ العربيةِ

شُغلتْ يا عز الدين القسَّامْ

والخالى من أرضِ الأوطانْ

قدْ سُوِّرَ بالأسلاكِ الشائكة الصمَّاءْ
وعليها لافتةٌ كتبتْها أقلامُ الذلِّ
بخطٍّ دَاعِرْ:
«محظورْ . . .
التصويرُ هنا محْظُورْ
محجوزْ . . .
محجوزٌ لبناءِ عماراتِ للإسكانِ الفاخرْ
محجوزْ . . .
محجوزٌ لمشاريعَ سياحيةْ
محجوزْ . . .
محجوزٌ لاستثمار عاجلْ»

(١١)

يا عزَّ الدينِ القسامْ
يا صرخةَ حقٍّ نبَعتْ من روحِ الإسلامْ
يا ألَقَ وسامٍ فى صدرِ الأيَّامْ
لم يَبْق مكانٌ لرفاتِكَ
فى أرضِ الوطنِ العربىِّ المسروقْ

وطنيَ المسحوقِ المحروقْ
معذرةً يا عزَّ الدينْ
أعيانى البحث
وكأنى قابيلٌ يحملُ جثمانَ أخيه
لكنْ. . .
أنَّى لى بغرابٍ يبحثُ فى الأرْضِ
يُرينى. . .
أينَ أوارى يا عز الدين رُفَاتَك؟
معذرة لا ألمحُ فى الأفق غرابًا
معذرةً. . .
لا أملكُ إلا أنْ أزحفَ فى هدأةِ ليلى المصلوبْ
لأعود إلى لحانِ المخمورْ
وأوارى تحت جدار الحانِ رفاتَك
وأهيلَ تراب الموتِ عليكْ
ولأخمَد أنفاسى بين يديكْ
وأوسِّدَ فى القبرِ السافلِ
جثمانَ الشرف العربْى

***

صرْنا يا عز الدين ثلاثةْ

لا . . . بل خمسةَ فى قبرٍ واحدْ

يعلوه الخان المخمورُ:

فى البدْءِ رفاتٌ مقهورُ

وفَتى يحيا عصرَ الغُرْبَةْ

ينظمُ شعرًا

يُمليه القلبُ المفطورُ

والشرفُ العربىُّ الدامى

وحصانٌ مسلوخُ الصهْوةْ

والخامسُ سيف المنصور

مثلومَ النخوةِ والسطوةْ

أصداْه الغمدُ السجانُ

وهوانٌ يتْلوهُ هوانُ

ولْيَحْىَ الملِكُ المنصورُ طويل العمر



تذييل

١- أحمد ياسين فى نبض الشعراء

٢- وقفة نقدية مع شعر الشهيد

د. عبد العزيز الرنتيسى

أحمد ياسين فى نبض الشعراء (١)

شهيدًا مـضى إلى ربه الشيخ أحمد ياسين. . كـان دائمًا يدعو ربه أن يلقاه شهـيدًا، فاستجـاب له ربه، ورجعت نفسه المطمـئنة إلى الله راضية مرضية، لتدخل جنته، مع النبيـين والصديقين واالشهداء، وحسن أولئك رفيقًا.

تقول صحيفة أحواله: إن «أحمد إسماعيل ياسين» ولد فى عام ١٩٣٨ فى قـرية الجورة قـضاء «المجـدل» جنوبى قطاع غـزة، وبعد نشـوء دولة العدوان إسرائيل سنة ١٩٤٨ لجأ مع أسرته إلى قطاع غزة.

. . وفى شبـابه تعرض لحادث أثناء ممارسـته للرياضـة، نشأ عنه شلل جميع أطرافه شللاً تامًا. . وعمل مدرسًا للغـة العربية والتربية الإسلامية، ثم خطيبًـا ومدرسًـا فى مساجـد غزة، وكان مـشهورًا بـجرأته فى الحق، وقدرته على الإبانة والإقناع. .

واعتقلتـه القوات الإسرائيلية عـام ١٩٨٣، وأفرج عنه سنة ١٩٨٥ فى عملية تبـادل أسرى، أسس حركة حماس سنة ١٩٨٧،واعـتقلته سلطات الاحتلال فى مايو ١٩٨٩ مع مئات من أبنـاء حركة حماس. وحكم عليه بالسجن مدى الحياة. . وأفرج عنـه فى أكتوبر ١٩٩٧ مقابل إفراج الأردن عن العميلين الصهيونيين اللذين حاولا اغتيال خالد مشعل. . ثم لحق بربه بعد صلاة الـفجر يوم ٢٢ من مارس ٢٠٠٤ نتـيجة عمليـة غادرة أشرف عليها المجرم شارون بنفسه.

تلك خطوط عريضة سريعـة من حياة البطل الشهيد، أما الحـقيقة التى يعجز القلم عن إيفـائها حقها فهى أن الرجل كـان «أمة» لم يكن قائدًا أو زعيمًا فـردًا من الذين يعبرون فى حياة الأمة، ويعيـشون فترة من الزمن، وبعدها يسدل عليه الزمان ستارًا، ويهيل عليه رُكامات من تراب النسيان.

كـان الرجل ينطلق من طاقـة إيمـانيـة لا تعـرف اليـأس أو الضـعف والاستسلام، وكان كمولِّد الكهرباء يشحن كل الأجهزة البشرية، فإذا بهم جمـيعًا جنود فى جـيش الله يقاتلون فى سـبيل الله، وفى سبـيل العرض والأرض، وقد هانت عـليهم جسـومهم.. وكـان للفتـيات دور رائع فى منظومة التضحية والفداء والاستشهاد.

***

ومن الحقائق الحـاسمة أن الشعر كان «ديوان العـرب».. سجل أيامهم وأحوالهم فى السلم والحرب، فى السراء والضراء، فى الآمال والآلام.. وفى عصرنا لم يفقد الشعر هذه السمة، وإن زاحمته فى هذا المجال أجناس أدبية أخرى كالقصة والرواية والمقال، ولهذا - ولأسباب أخرى- فقد الشعر درجات فى هذا المجال، ولكن أساس السمة وجذورها مازالت باقية.

وباستقراء الشعر آمل أن أكون مصـيبًا إذا قلت: إن زعيمًا أو قائدًا فى العصـرالحديث لم يفز بمثل هذا الـعدد الكبيـر من القصائد الشـعرية التى نظمهـا الشعـراء فى الشيخ أحـمد ياسـين فى حياته، وبعـد أن لقى ربه شهيدًا.. وفى هذا المقال -وما بعده إن شاء الله- نحاول أن نعرض -عرضًا

نقديًا- لقطوف من هذه القصائد تبين أهم مضامينها، وملامحها ودلالاتها الموضوعية والفنية.

***

للشاعر الشاب «مسعود حامـد» قصيدة طويلة فى الشيخ ياسين نظمها منذ عامين، وكأنه يودع فيها الشيخ الوداع الأخير، وللشاعر المطبوع حاسة إيمانية تجعله يبـدو وكأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.. يقـول مسعود مخاطبًا الشيخ:

لا تغادرْ

غرْسك الطالع مازال نديا

لا تغادر

ما الذى أغراك بالترحالِ

للأرض البعيدة

هل هكذا الوطن الحر

يستفزون حدودَهْ؟

هكذا بالسهلِ

يجرح القلب وريدَهْ

أيها الياسين صبرًا

لا تبادله صدوده

إن ذاك البيت مشحون

أعاصيرَ

ومحفوف مخاطر

فتعال

لا تغادر.. عد لنا

كى نكمل المعنى

وتصطف البشائر

***

والشاعر عبدالله رمضان من الشعراء المصريين الشباب المسكونين بحب فلسطين والانتصار لقيم الحرية والحق والعدل.. وقد نظم القصيدة التالية، أبرز ما فيها اعتماده الأساسى -فى كل كلماتها- على أسلوب المفارقة.. أسلوب إبراز التضاد الفادح بين نقيضين، خير وشر، حق وباطل، سلام وغدر.. يقول عبدالله رمضان مخاطبًا الشيخ الشهيد أحمد ياسين:

سلام عليك

وليس عليهم سلام

فمن راحتيك

تفجر نهر الشهادة

يروى تراب الوطن

ومن راحتيهم تفجر نهر البلادة

وبئر العطن

فنم هادئ البال.. ثم لا عليك

فدربك نور

وفيه نسير

ويحدو خطانا زئير

إلى أن يعود الطريد

ويهنأ بالعش طير بعيد

ويسكن دم الشهيد

فلا تنسنا عند ربك

ولا تنسهم من شكاتك

***

كان أحمد ياسين -رحمه الله- مشلول الطرفين، والذى لا يعرفه الكثيرون أنه كان مصابًا كذلك بقائمة من الأمراض منها: فقدان البصر فى العين اليمنى بعد أن ضرب عليها أثناء التحقيق، وضعف شديد فى قدرة الإبصار للعين اليسرى، والتهاب مزمن بالأذن، وحساسية فى الرئتين، وأمراض والتهابات باطنية ومعوية.

وكل هذه العوامل تعجز قدرات الإنسان، وتجهض طموحاته وآماله، فيجنح -مضطرًا- إلى حياة الدعة والسلامة والسكون والسكينة، ولكن

أحمد ياسين لم يكن «فردًا» قعيدًا، بل كان -كما قلت- «أمة»، أمة تنطلق من طاقة إيمانية فعالة لا تعترف بالعجز الجسدى، ولا تعرف الضعف والهوان، فمن «كرسيه» كان يطلق أوامره، ويدير أموره، ويوجه الشباب إلى ساح الفداء والشهادة، ومن عجب أن صواريخ الغدر الصهيونى أصابت الكرسى، ومزقته أشلاءً كجسد صاحبه الشهيد، وأصبح هذا «الكرسى» رمزًا للصمود والقوة والإرادة، فجاء ذكره فى أغلب قصائد الرثاء، ومن أحدث هذه القصائد قصيدة الشاعر المشهور عبدالرحمن العشماوى، وعنوانها «يا فارس الكرسى»، وعن الكرسى يقول:

كرسيك المتحرك اختصر المدى ... وطوى بك الآفاق والأزمانا

علَّمته معنى الإباء فلم يكن ... مثل الكراسى الراجفات هوانا

معك استلذ الموت، صار وفاؤه ... مثلاً، وصار وفاؤه عنوانا

أشلاء كرسى البطولة شاهد ... عدل يدين الغادر الخوانا

لكأننى أبصرت فى عجلاته ... ألمًا لفقدك لوعة وحنانا

حزنًا لأنك قد رحلت ولم تعد ... تمشى به كالطود لا تتوانى

***

ومن أبلغ ما قيل فى هذا المقام الأبيات التالية للشاعر محمد بن عبدالرحمن المقرن:

أخافهم وهو فى كرسيه عجبا

فكيف لو كان يمشى فى سرايانا؟

أخافهم وهو ذو شيب وذو وهن

فكيف لو كان كالشبان ريانا؟

الرعب ألقاه ربى بين أضلعكم

يا نسل قرد غدا فى الشكل إنسانا

إن وحدة الموضـوع -وهو كرسى الشـيخ ياسيـن- لا تنفى البصـمات الخاصة لكل شاعر، . . وهذا ما نراه فى المقال التالى.

***

أحمد ياسين فى نبض الشعراء (٢)

أغلب القصائد التى تحدثت عن «أحمد ياسين» -مدحًا فى حياته، أو رثاءً بعد استشهاده -كان للكرسى مكان ملحوظ فيها، وهو الكرسى الذى كان يتخذه وسيلة وحيدة لتنقلاته مدفوعًا بغيره، فقد كان مقعدًا مشلول الطرفين، ويرجع اهتمام الشعراء بهذا الكرسى إلى أسباب متعددة من أهمها:

* مخالفة المعهود المعروف؛ فالمقعدون يركنون -مرغمين مضطرين- إلى حياة الدعة والسكينة والهدوء والسلام، فالعمل الإيجابى النشط -على مستوى الجميع- لا وجود له فى حياتهم غالبًا؛ وذلك لمحدودية مجهودهم، وهذه المحدودية قد تصل إلى حد العجز التام.

* وعلى المستوى الفلسطينى، يعتبر الشيخ أحمد ياسين نسيج وحده، - أى حالة وحيدة فريدة - بالنظر إلى من سبقوه من قادة الجهاد الفلسطينى مثل: عز الدين القسام، وعبد القادر الحسينى، وحسن ياسين.. وكلهم قادوا مسيرة الجهاد، وكانوا نعم القدوة والأسوة، إلى أن لحقوا بموكب الشهداء..

والشيخ ياسين -بحالته هذه- يكون أكثر جذبا لوجدان الشعراء ومشاعرهم، والكلمة الشاعرة.

* أصاب الكرسى ما أصاب الشيخ من تحطيم، فتحول -كجسده- إلى أشلاء، وكأنه يشارك صاحبه وجدانيًا فى السراء والضراء، و«تشخيص» الكرسى بهذه الصورة يعتبر مجالاً طيبًا رحيبًا للمعالجة الشعرية.

وقد وفق الشاعران: عبدالرحمن العشماوى وعبدالله رمضان فى تناول هذه الفكرة، وتعميقهـا، والتعبير عنها تعبيرًا فنيًـا، كما عرضنا فى المقال الماضى.

***

فالشاعر الأصـيل هو ذلك الذى يسير، لا ذلك الذى «يساير»؛ أى ذلك الذى يكون له تفرده، وتميـزه وبصمته الفنية الخـاصة، لا ذلك الذى «يلغى» شخصيته الفنية؛ مؤثرًا أن يقلد من سبقوه فى أفكارهم وتصويرهم، وأدائهـم التعـبيرى، ومـن ثـم قد يكـون الموضوع واحدًا، ويعالجـه الشعراء -مهـما كثروا- معالجات مختلفة، وأداء يحمل بصمات صاحبه، ويدل عليه.. ومن أقوال النقاد فى ذلك: «إن الأسلوب كالمرآة تعكس صورة صاحبها.. الناظر فيها»، وأدل من ذلك قول أحدهم: «إن الأسلوب هو الشخصية».

***

والدكتور عـبداللطيف عامر -رئيس قـسم الشريعة بجامـعة الزقازيق- شاعـر متمـيز مطبـوع، مع أنه من الشعراء المقلين، وقـد يكون ذلك منه حرصًـا على ألا يعلن إلا عن الأعـمال الناضـجة، وقـد عالج مـوضوع «كرسى الشيخ ياسين» بقصيـدة كاملة، عنوانها «آية الكرسى» مهداة لروح الشهيد أحمد ياسين، وهى تحمل طوابع تجديدية متعددة، وبراعة فائقة فى التصوير، ووفق الشاعر فى إيثار القالب القصصى الدرامى، مع الجمع بين الحركتين الحـسية والنفسية، وربط «الكرسى» بالمعطيـات الدينية والعقدية، وعرض جزئيات الواقع المعيش بما فيه من اختلالات وتناقضات.

وهذه الأحكام التقـييمـية لاتغنينا عن عـرض جزء من هذه القصـيدة الدرامية البارعة:

أذَّنَ «سيدنا» لصلاة الفجر

وأقام فقمنا

وتلا آيات من سورة ياسين

وختمنا «سبحان الله، وباسم الله»

وبسر الكرسى وآيته

ختم الذكر

وارتفعت أيدينا بدعاء

ودعا سيدنا بالنصر

فقلنا: «آمين»

وتصافحنا فى أمل ورجاء

***

وعلى قدسية بيت الله

انقضَّ الغدر

فإذا «ياسين» يحلق فى الشهداء

وإذا الكرسى براق فى «معراج»

أو إسراء

يا عجبا!!

* كيف تحل «السورة» فى «صورة» إنسان؟

بل كيف يعانق كرسى ملكوتَ الرحمن؟

يلتحم الجسم البشرى بآيات القرآن؟

يا عجبا من صورة كرسيين!!

كرسى عبدٍ بجناحين

يخفض جنبيه لسيده

فيكون ذلولا

لا يحمل رجلاً مشلولاً

بل يخدم أسدا مغلول الساقين

وفؤادا حرا موصولا

بالله وبالثوار

وعلى نبضات القلب المستعصى الجبار

ينتفض الشعب

وتلتهب الأنهار

***

وفى مطولة شعرية بلغت خمسة وخمسين بيتا من شعر الشطرين (على البحر الكامل) لا يتـحدث الشاعر عبدالله أحمـد كامل (الطالب بكلية دار العلوم بالفيـوم) عن الكرسى مباشرة، بل عن حالة «الشـيخ ياسين» التى ألزمته استخدام هذا الكرسى.

وتصـوير هذه «الحالة» يضـخم فـداحة الجـريمـة التى ارتكبهـا هؤلاء الصهاينة:

أبكى على العملاق مدرسة المغا ... وير البـواسل قـاهر السفـلاء

من مـثله بطل بجسم سـاكن ... والروح طائـرة إلى العليـاء؟

الجـسم مشـلول، نعم، لكنه ... كالسيف مـسلول على الجبناء

من مثله فى القيد يقضى عمره ... ليحرر الأقـصى من الأعداء؟

ويخلص من هذا الخـاص إلى «العـام الأشمل»، فـيـشخص أمـراض الأمة، ويدعوها إلى تحكيم القرآن، والعودة إلى التحلى بالقيم الإسلامية، فبها نحقق النصر والتقدم والسعادة، فهذا هو الطريق، وذاك هو المنهج.

***

ومازال الشيخ أحـمد ياسين: شهـيد الدين والحق والعرض والأرض، منبعًا غنيًا ثرارًا للإبداع الأدبى بعامة، والشعرى منه بخاصة.

مما يشدنا إلى لقاء ثالث فى المقال التالى.

أحمد ياسين فى نبض الشعراء(٣)

الحكمة تصدر عن قائلها نتيجة خبرة طويلة، وتجارب متعددة، ونظر ثاقب، وفكر رصين.. ومن الحكم الخالدة قول الشاعر:

الناس صنفان: موتى فى حياتهمو　　　وآخرون ببطن الأرض أحياء

والموت هنا يعنى انعدام الذكر، وفقد المكانة فى قلوب الناس، فليس لمثل هذا «الحى الميت» من الأعمال الصالحة، والفاعلية الاجتماعية والإنسانية ما يزرع حبه وتوقيره فى قلوب الناس.. وعكس هذا الإنسان «الميت الحى» الذى عاش لدينه ووطنه عاملاً ومجاهدًا ومعلمًا ومرشدًا وموجهًا.

وقد رأينا فى أحمد ياسين هذا النموذج الحى الذى اتسعت له القلوب، وتعطرت بذكره الألسنة، ومازالت قصائد الشعر تنظم فيه بالمئات، وليست هناك -بقدر علمى- شخصية تاريخية فازت بهذا «الكم» الهائل من الشعر على مدى التاريخ، حتى إن ما بين يدى الآن من قصائد ومقطوعات ليصلح أن يكون مادة غنية جدًا للحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراه فى الأدب.

***

مضى أحمد ياسين الجسد، ودفن ما جمع من أشلائه، وتذكرت قول أبى تمام:

راحت وفود الناس عن قبره فارغة بالأيدى وملأى القلوب
قد راعها ما رزئت إنما يعرف فقد الشمس عند المغيب

وبقى «أحمد ياسين» القدوة المعلم الذى يستضاء بنهجه الجهادى، وخلقه القرآنى، وما تحلى به من إصرار وعزيمة وإيمان لا تحده حدود. ومن ثم حفل الشعر بالإلحاح على هذه الفكرة.. فالشاعر السورى الكبير محمد الحسناوى يقول من قصيدة له طويلة:

يا مؤمنون تعلموا ترتيله جهرا ومن اهل التلاوة كونوا
لا يرجع الأوطان إلا سورة الـ أنفال فاح عبيرها المكنون
كتب الإله لتغلبن إذا تلو تم ما تلا الفاروق والياسين
لو تقرأ القرآن أمة أحمد لاستيقظت من نومها حطين
ومشى صلاح الدين فى أجناده وبكت على أنقاضها صهيون

وواضح أن الشاعر لا يقصد التلاوة بمفهومها العابر الدارج، ولكنه يقصد التلاوة مع الفهم والتدبر، وأخذ النفس - عمليا - بمضامين الآيات، وما تدعو إليه من تقوى، وصلاح، وإعداد القوى، والجهاد فى سبيل الله.

***

وعن خلود الشهيد أحمد ياسين فى منهجه، وتراثه الفكرى والعقدى الذى تركه لأبنائه ومريديه، تقول الشاعرة ابتسام مصطفى:

ستظل تحيا فى الفؤاد منارة تهدى القلوب

ستظل بسمتك الحنون تضىء فى ليلى الدروب

سيظل صوتك بيننا

فى منهج الأبطال..

فى درب الحماس الصاعد

فى صولة القسام والفجر الجديد الوادع

***

والفكرة نفسـها يعالجـها الشاعـر «رمضان عـمر» - من نابلس - من مدخل جديد، وعلى نحو أوفى، فيقول من قصيدة طويلة:

قصدوا غيابك، حين نوريك التراب

فليت شعرى، كيف تسلوك الملايين

التى رضعت تعاليم الجهاد؟

تجندت فى واحة الياسين

كانوا واهمين، لأن شعب العز

يعرف كيف يستل الردود من الوريد

.. إنه الإسلام - وا إسلام - نعم المارد

***

يقال: إن الرجل يعيش بامتداده فى قلوب تلاميذه ونفوسهم، وإيمانهم عمليـا بما خط ونهج، وكانت «حـماس» بمجاهديهـا هى أهم أثر من آثار

الشهيد القائد «أحمد ياسين»، ودخل العنصر النسائى مجال التضحية والفداء.. ولقد قام أحمد ياسين ببعث حقيقى للشخصية الفلسطينية، وقد أبرز الدكتور رشاد بيومى هذا الأثر الطيب فى أبياته التالية:

بعثت الحياة بكل أناة | قهرت العدو بروح وعزم
وحتى البنات رفعن السلاح | وجددن روح العلا بالقسم
حماس الجهاد رعاكم إلهى | فدتكم دمائى وكل الأمم
وحققتمو الأمل المرتجى | وكنتم دواما حماة العلم
فسيروا على نهج هذا الشهيد | ولا تنثنوا أو تزل القدم

* * *

وعن حماس يقول كاتب هذا المقال:

ها هم أسودك يا ياسين قد نهضوا | يفدون مسرى رسول الله والدينا
همو حماس بروح الله قد زحفوا | «لبيك لبيك يا أقصى لقد جينا»
فامضى حماس بخيل الله واقتحمى | فلن يعيد الحمى إلا المضحونا
امضى سعيرا بنور الله وانتصرى | فالنصر حق لمن بالله يمضونا
ولتزرعى الرعب جمرا فى مضاجعهم | حتى يعيشوا حيارى لا ينامونا

* * *

والشاعر محمد صيام واحد من تلاميذ أحمد ياسين؛ ولذلك نراه يردد فى شعره المعانى والقيم التى زرعها فيهم الشيخ الشهيد، فيقول من قصيدة طويلة:

وليعلم الدخلاء أنا لن نذل ولن نهون

مهما - سلاح الأمريكان لقتلنا - يستخدمون

وحماس تعلنها يغص بها المساوم والخئون:

لا نوم - بعد اليوم - للمتفجرات ولا سكون

لن يحمى الدخلاء لا جدر هناك ولا حصون

وكتائب القسام لن يخشين من ريب المنون

والموت للجبناء ما ذرفت على الجرح العيون

* * *

لقد كانت «حماس» - ومازالت - هى أهم «الثمرات» التى صنعها، وشكلها الشيخ أحمد ياسين.. وإذا ذكر الشيخ الشهيد ذكرت «حماس» التى حملت لواء الجهاد، وكانت -ومازالت- أقوى قوة ضاربة فى المنظمات الفلسطينية.. وبوجدان متوهج صادق يخاطبها الشاعر سمير عطية قائلا:

تيهى حماس بثوب عزك واشمخى

كحلّت بالشيخ الجليل عيونا

دومًا على عهد الوفاء أحبكم

والقلب أضحى باللقاء رهينا

إنا نقشنا فى الصدور حماسنا

ليكون فى صدر العدا سكينا

إنا لـهــذا الـيـــوم صــغـنا شـــعـــرنا

لنعـــيـــد شـــوقـــا فى البــــراق سنينا

تيـــهى حـــمـــاس فـأنـت غـرة فـــجـــرنا

وخـــيـــول نصـــــرك للفـــــدا تأتينا

***

إن «حماس» هـى قطب الرحى عند الحديث عن آثار الشيخ الشـهيد، ولكن الشاعر «أحمد منصـور الباسل» فى قصيدة بعنوان «أنا لست أرثى» يجنح إلى التـصوير الرومـانسى الآسر وهــو يسلك طريقه للحـديث عن حماس فيقول:

يا ســـيــــدى ســـيظل بـحـــرك هادراً

مـــجـــداً يؤجج مـــوطـن الإســـراءِ

ســـتظل وشـــمّـــا فـــوق أســـيـــاف المنى

ســـتظـل لحن القـــبـــة الحـــوراء

دمك الـزكى الـيـــوم أصـــبح ثـورة

ونداءَ حـق فى فـم الضـــعـــفـــاء

وحـــمـــاس بنت الـدين خـيـــر بنيـــة

حـــتـــمّـــا ســتــحـــرق قـــاتلَ الآباء

ليعمَّ صوت الحق بعد جهادها

ويعم لحن النصر فى الأرجاء

***

وفى الحديث عن حماس تقابلنا التناصات الدينية، من القرآن والسنة والتراث الدينى، وهذا لا غرابة فيه، فحماس قامت على أساس «الجهاد»، والجهاد فريضة دينية، ولكاتب هذه السطور قصيدة كاملة عن «حماس» ختمها بالأبيات التالية:

خلوا الطريق لنا فنحن الناس

قدر يصب عليكمو نهَّاسُ

وليكتب التاريخ فى صفحاته

إنا لدين محمد حرَّاس

ولينصرن الله ناصرَ دينهِ

هذا هو المعيار والمقياس

***

وبهذا المقال نختم حديثنا عن الشهيد أحمد ياسين؛ لأن ما نظم فيه أكثر من أن تتسع له صحيفة أو مجلة، وآمل أن أراه مادة للحصول على درجتى الماچستير والدكتوراه فى الأدب العربى الحديث..

وقفة نقدية مع شعر الشهيد عبدالعزيز الرنتيسى

(١)

الشهيد عبـد العزيز الرنتيسى (٢٣/ ١٠/ ١٩٤٧- ١٧/ ٤/ ٢٠٠٤) ولد فى قرية (يبنا) بيـن يافا وأسدود، وطرد أهلهـا منها سنة ١٩٤٨، وسكن وأهله أحـد مـخيـمـات اللاجـئين فـى خان يونس، ودرس الابتـدائيـة والإعدادية والثانـوية، وأهَّله تفوقه للالتحـاق بكلية الطب فى الإسكندرية بمصر، وتـخرج فيـها سنة ١٩٧٠، وعـاد إلى فلسطين، وعـمل طبيـبًا، وتزوج سنة ١٩٧٣، وكان واحدًا من مؤسسى حركة حماس سنة ١٩٨٧.

قضى فى سـجون الاحتـلال سبع سنين مـتفرقـة، كما أبعـد لمدة عام ومئات من إخوانه إلى مرج الزهور بجنوب لبنان ١٩٩٢.

وكان من أنشط رجال حماس؛ لذلك حـاولت إسرائيل اغتياله، ولكن المحاولـة لم يكتب لها النجـاح، وبعد اغـتيـال الشيخ أحـمد ياسـين فى ٢٢/ ٣/ ٢٠٠٤، أصبـح الرنتيـسى هو قائد حـماس الجـديد فى القطاع، وأصبح المطلوب الأول لقوات الاحـتلال الصهيونى، ثم فـاز بالشهادة فى ١٧/ ٤/ ٢٠٠٤.

***

والشهيد الرنتيسى عاش يحب الأدب والشـعر من صغره، وكان خطيبًا مفـوهًا لا يخلو بيانـه من الطوابع الإسلامـية، فقـد عاش مـتأثرًا بالتـيار الإسلامى، مـخلص الود والولاء له. وكان شـاعرًا، نظم عددًا طيـبًا من القصـائد التى انعكست فيهـا روحه، وملامـحه الفكرية وأبعاده العـقدية

والوطنية، وفى السطور الآتية نحاول أن نلقى إضاءات على هذا الجانب من شخصية الرنتيسى، وهو جانب قد يغفله الدارسون أمام كفاحه البطولى، وشخصيته القيادية الشامخة.

***

بين شاعرين:

وأشهر شاعر فلسطينى شهيد «أبوالطيب عبدالرحيم محمود» (١٩١٣-١٩٤٧) الذى استشهد فى معركة الشجرة ضد العصابات الصهيونية، وبين عبد الرحيم محمود وعبد العزيز الرنتيسى من ملامح الشبه ما يأتى:

١- كلاهما كان قسّاميًا يؤمن بالخط الجهادى العملى لعز الدين القسام الذى كان يردد فى خطبه «إن فلسطين لن يحررها «الأفندية»، ولكن يحررها رجال وقفوا أنفسهم لله، يحمل كل منهم البندقية بيد، وكتاب الله باليد الأخرى»، وهو المبدأ الأساسى الذى اجتمعت وأجمعت عليه حماس وجناحها العسكرى «كتائب عز الدين القسام»، وإن زاد الرنتيسى أنه كان أحد قيادات الإخوان فى فلسطين.

٢- كلاهما شاعر وظّف شعره فى خدمة القضية الفلسطينية: داعيًا للجهاد، محمسًا القلوب، مُلهبًا المشاعر، مُزْريًا بالخنوع والاستسلام. فاضحًا حقيقة أعداء الدين والعروبة وفلسطين.

٣- كلاهما فاز «بالشهادة» التى حرص عليها طيلة حياته.

***

ومن الطبيعى أن تكون بين الشاعرين الشهيدين ملامح فارقة أهمها:

١- كان الرنتيسى أوسع علمًا وثقافة والتصاقا بالتيار الإسلامى فكرًا ووجدانًا من عبد الرحيم الذى عاش شطرًا من شبابه يطارده الإنجليز، فتسلل إلى العراق وقضى فيه بضع سنين.

٢- كان عبد الرحيم «مقاتلاً بنفسه»، يواجه الأعداء بسلاحه فى ميادين مفتوحة حتى أصيب بشظية فى معركة الشجرة سنة ١٩٤٧ فاضت روحه على أثرها.

أما الرنتيسى فكان شخصية قيادية سياسية، وقد آل إليه أمر قيادة «حماس» بعد استشهاد الشيخ أحمد ياسين رحمه الله.

٣- ومن ناحية الكم كان عبد الرحيم مكثرًا فيما ينظم، كما كان أكثر تنويعًا من الناحية الموضوعية.

هذا طبعًا عدا الفوارق الفنية والأسلوبية بين الشاعرين.

***

المضامين الفكرية:

وبعد هذا المدخل نقترب من الرنتيسى فى « عالمه الشعرى»، وباستقراء هذا الشعر نرى أنه يدور على عدد من المحاور أهمها:

١- الدعوة إلى حب الوطن، وإخلاص الولاء له، والجهاد فى سبيله جهادًا عمليًا متواصلاً حتى يتحقق النصر. وعدم الاستسلام للتخاذل والحزن، والدعوات للسلام ومعايشة الأعداء.

٢- الحملة الضارية على القيادات المتخاذلة اليائسة اللاهية التى تمالئ الأعداء، وتستجيب للقوى الكبرى التى تساندهم.

٣- الإيمان القوى الصادق بالقيم الإنسانية العليا، والحرص على أن تكون هى منار حياتنا فى طريقنا لتحقيق النصر.

٤- الحرص على تحرير فلسطين يجب ألا يشغلنا عن المساهمة -بقدر ما نستطيع- فى مناصرة الشعوب الإسلامية التى تواجه محنًا عاتية وهى تواجه أعداء الإسلام والحق والعدل، وأظهر هذه الشعوب الشعب الأفغانى.

***

مفهوم الوطنية:

والوطنية -فى نظر الرنتيسى- تعنى «الفداء بمفهومه الواسع الشامل الذى يتسق مع القيمة المثلى للشهادة»، وهى أسمى أمنية فى الحياة. يقول الرنتيسى:

قم للوطنْ. وانثر دماك له ثمنْ
واخلع -فديتكَ- كلَّ أسباب الوهنْ
فإذا قُتلتَ فلستَ أنت بميت
فانعم بعيش لا يبيدُ مع الزمن
أفمن يذوق القتل فى ساح الوغى
يجلو -كما الترياق- أوصاب البدن؟!

أمّن يعيش العمر ميْتا يشتهى

طعم البلى فيرد: كلا، لا ولن؟

***

الكبار الصغار:

ويحمل الرنتيسى حملة شعواء على القيادات المتخاذلة التى فرطت واستسلمت للصلف الإسرائيلى، فى قصيدة تعد أشد قصائده وأشحنها بوجدانه الملتهب الصارخ فيستهلها بقوله:

أحيوا ضمائركم أما بقيت ضمائرْ ... فتجارة الأوطان من كبرى الكبائرْ

عودوا إلى أطفال غزة تسمعوا ... عن مولد الإصباح من رحم الدياجرْ

عودوا إلى القسام يسلخ من ظلا ... م الليل بالأكفان مجدًا للأواخر

ويدعو الشاعر هؤلاء إلى «العودة». . العودة بالنظر والبصيرة إلى شخصيات شامخة للتمثل والاقتداء، ويذكرهم بميراث الأجداد من قرى ونجوع ومدن استولى عليها الأعداء، وقتلوا أبناءها أو طردوهم وشردوهم. يقول الرنتيسى:

عودوا إلى المشلول ياسين العلا ... بحماسه دارت على البغى الدوائرْ

عودوا إلى الخنساء تكظم غيظها ... لتثور بركانا يزلزل كل خائر

عودوا إلى الرشاش تَخْضله اللّحى ... بخنادق ومواقع فى صور باهر

عودوا إلى آثارنا. . آبارنا ... أشجارنا الخضراء تنتظر الحرائر

عودوا إلى مرج الزهور لتعلموا أن المبـادى لا تذل إلى مكابر

ويختم الشاعـر قصيدته المتـوهجة باستشراف النصـر والتعلق بالأمل، فالمؤمن لا يعرف اليأس والقنوط:

لكنـني والحق يشـــهـــد أننى آبَى القنوطَ فذاك من شيم الكوافرْ

فـغـدا تعـود لنا الديار تبـثنا أشواقها ونقيل فى ظل البيادر

***

وهذه العودة التى دعا إليها شاعرنا الشـهيد ليست من قبيل التراجع أو التجـمد على مـوقف يضاد النـهوض، والتقـدم، ويحرص على الـقديم لذاته، وإنما هى عودة لـلتعلم والاعتـبار وشحن القلب والـنفس بطاقات الإيمان والثبات والشجاعة فى التـصدى للأعداء لجعل كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فهى دعوة للعـودة النفسية والروحية والعقلية لتحـقيق الهـدف الذى ذكرناه آنفًا. . إلى أطفـال غزة، وإلى رائد الجـهاد والفداء عز الـدين القسام، وإلى الخنساء التى شـرفت وسعدت باستـشهاد أبنائهـا الأربعة، وإلى منطق القـوة الذى رمز إليـه الشاعر بآليـة من أهم آلياتها وهى المدفع الرشاش. وحتى يثـير النخوة والحماسة فى قلوب أبناء الوطن يذكرهم «بقطع» من الأرض الحـبيبـة السليبة. . ذكرها على سـبيل التـمثـيل لا الحصـر، وهى «بينا» القـرية التى ولد فيـها، ويافـا وبيسـان والمجدل.

***

الإسلام الدين الجامع:

ولأن شاعرنا الشهيد يؤمن إيمـانًا وثيقًا أن الإسلام دين ووطن وقومية وجنسية على حد قول الشاعر القديم:

أبى الإسلام لا أبَ لـى سواه إذا افـتـخـروا بقـيس أو تميم

نرى الرنتيسى يؤمن بوحدة المعـركة على اختـلاف ميادينهـا، ووحدة العدو على اختـلاف جنسياته، ووحدة الوسيلة ووحدة الهـدف: فالمعركة واحدة ممتـدة، وهى ضد العـرب والمسلمين فى كل مكـان، والأعداء هم الصليبيون والـصهيونيون والملاحدة، والوسيلة التى يـجب أن نتصدى بها هى الجهاد بمفهـومه الشامل: بالنفس والمال، وكل وسيلة مسـتحدثة تقوى جهـادنا فى مواجهة أعـدائنا، أما الهدف الذى نجـمع ونجتمع عليه، فـهو تحقـيق الحرية، والانتـصار لدين الله، حـتى تكون كلمة الله هى العـليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وكل أولئك دفع الشاعر إلى أن يمتد ببصره وروحه إلى أفغانستان التى صمدت بقوة إيمان وعـزيمة فى وجه الروس وأذنابهم، ولم تشغله جراح فلسطين عن جراح أفغانستان البلد المسلم، يقول شاعرنا الشهيد:

رغم الجـراح الداميـاتِ بغـزة رغم العذاب من اليهود صَلانى

بالرغم من بيـتى المدمـر إننى أهدى التحية شـعبنا الأفغانى

وعن وحدة النضال يقول الشاعر:

وحماس -يا إخواننا- رفعت هنا نفس اللواء عـلى ربا الأوطانِ

روح الشهيد بأرضكم وشهيدنا عند المسا فى العرس يلتقيانِ

لله باعوا مالهم ودماءهم ليُمتَّعوا بالروْح والريحانِ

ويتحدث عن بطولة عبد الله عزام فى أفغانستان، وهو فلسطينى، وواحد من مؤسسى حماس، ويسخر من الروس الذين كسرهم المجاهدون، وهزموهم هزيمة نكراء انتهت بخروجهم من أفغانستان إلى الأبد:

هذى جيوش الروس جرتْ عارها خسئتْ جيوش الكفر والطغيان

يا جند جورباتشوف أين مطارقٌ ومناجل آلت إلى النسيان؟

ولَّت كما وليتمو هربا، فلا نصرت، ولا سلمت من الخذلانِ

حربًا على الله العزيز أقمتمو فأصابكم بالخزى والخسران

وحماسنا -إخواننا- قد أعلنتْ تأييدها للشعب والربان

ويختم قصيدته بالأمل فى نصر الله لبناء دولة الإسلام:

وإلى اللقا فى القدس يا إخواننا لعمارة البنيان والأركانِ

***

(٢)

و«حديث النفس» هى أطول ما بين يدىّ من شعر الشاعر، وهى قصيدة حوارية جاءت فى شكل حديث داخلى (مونولوج) بين الشاعر ونفسه، وهى تعكس الصراع بين «النفس الدنيا» التى تدعو الشاعر إلى التشبث بالحياة وإيثار السلامة بعيدًا عن المعاناة ومخاطر الجهاد، وتقدم هذه النفس مبررات دعوتها هذه، فيتصدى لها الشاعر -وقد رمز إليه الشاعر بـ«هو»، ويمكن أن نطلق عليه «الذات العليا»- وينطلق الـ«هو» ناقضًا حجج هذه النفس الدنيا. والقصيدة من تسع مقطوعات استهلها الشاعر بالمقطوعتين الآتيتين:

[النفس]:

ماذا دهاك يطيب عيشك بالحزَنْ

تشرى النعيمَ وتمتطى صهْو الصعابْ

ماذا عليك إذا غدوت بلا وطن

فانعم ترى ذا العيشَ فى ظل الشبابْ

[هو]:

يا هذه يهديك ربى فارجعى

القدس تصرخ تستغيثك فارجعى

والجنب منى بات يجفو مضجعى

فالموت خير من حياة الخنّع

ولذا فشدى همتى وتشجعى

وتمضى النفس تغـريه -بأسـاليب مـتعـددة- بإيثـار السلامـة، وتجنب المخاطر التى ستـمتد نيرانها إلى أهله وبنيه، وهو من جـانبه -بفكر سامٍ، وحجج قـوية- يهدم منطقهـا المادى، ويحاول أن يحملهـا إلى الإيمان بما يؤمن به، إلى أن نجح فى محاولاته ومسعاه، فـتسلم نفسُه لمنطقه، وتتوافق مع ما يعتقده ويؤمن به، فتقول: (وكان ذلك نعم الختام):

إنى أعيذك أن تذل إلى وثنْ

أو أن يعود السيف فى غمد الجراب

فاقض الحياة كما تريد فلا ولن

أرضى حياة لا تظللها الحراب

***

وقصيدة «حديث النفس» -أطول قصائد الرنتـيسى- تعتمد -كما قلنا- على «الحـوار الداخلى»، وهو ما يسـمى «بالمنولوج»، وبعـضهم يسـميه «البوح» أو «الصـوت المتبادل غير المسـموع»، وقد يكون موضـوعه «فكرة عابرة» فـيأتى سريعًـا موجزًا، وقـد يعالج قضـية ذات رحابة وامـتدادات وأفكار متـعددة تتـراسل أو تتقلب، وتصطدم، وتنتـهى إلى النتيـجة التى يطمئن إليهـا صاحبها، وقد تظل النتيـجة جدلية معلقة، مـتلبسة بالقلق والتوتر.

فى القرآن الكريم:

وفى القرآن نماذج متعددة من هذا الحوار الداخلى يتراوح بين القصر والطول، كالذى جاء فى قصة «عزير» الذى مر ببيت المقدس بعد أن خربها «بختنصّر» ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ...﴾، وبعد حديث النفس تأتى «الإماتة» و«البعث»، وكلام الله الموجه إلى «عزير» فى حوار خارجى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فى الموروث الشعرى:

وثنائية الحوار بين النفس وصاحبها، أو بين «الأنا الدنيا» و«الأنا العليا» لها وجودها المتعدد المشهور فى ديوان الشعر العربى، ونكتفى فى هذا المقام بمثالين: الأول للصحابى الجليل عبد الله بن رواحة، فالتاريخ يروى لنا أن جيش الروم فى مؤتة كان قرابة عشرين ضعفًا إذا قيس بجيش المسلمين، استشهد القائد الأول «زيد بن حارثة»، واستشهد القائد الثانى «جعفر بن أبى طالب» بعد أن قُطع ذراعاه، وأصيب بأكثر من تسعين طعنة رمح وضربة سيف، ورمية سهم. وتلقف الراية بعده القائد الثالث «عبد الله بن رواحة» ويقال إنه التوى بالراية بعض الالتواء- أى أخذه شىء من

التـردد الذى يأخذ النفس البشـرية فى مواطن الشـدة والهول- فـأراد أن يثبّت نفسه المترددة، ويزرع فيها الشجاعة والحماسة، فخاطبها قائلاً:

أقـسـمتُ يـا نفـسُ لـتنـزلِنَّـهْ
طـائـعـة أو لـتُـكْـرَهِـنَّـهْ

إن أجـلـب النـاس وشـدوا الـرنـة
مـالـى أراك تـكـرهـيـن الجنَّـةْ

قـد طـالما قـد كنـت مطـمـئـنة
هـل أنـت إلا نطـفـة فى شـنَّـةْ؟

(الرنة: القوس التى ترمى السهام. الشنة: القربة القديمة).

وأراد أن يزيد نفسه شجاعة وإقدامًا وتقدما فذكرها بالقائدين الشهيدين قبله: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب -رضى الله عنهما- فقال:

يـا نـفـس إلا تـقـتـلـى تمـوتـى
هذا حِـمـام الموت قـد صَلِـيتِ

ومـا تمنيت فـقـد أعـطيـتِ
إن تفـعـلى فـعلهـمـا فـقـد هُديتِ

وإن تأخـرت فـقـد شـقـيت

قطرىّ بن الفجاءة:

وهذه المعانى القيـمة التى جاءت فى الشعر العربى على سـبيل الفخر، أو دعوة النفس إلى الـتحلى بها، تمثلت فى «أرجـاز الحروب» على هيـئة

بيت أو بيتين أو مقطوعة يرفع بها الشاعر المقاتل صوته محمسًا نفسه، مرهبًا عدوه، ونرى الشاعر الخارجى «قطرى بن الفجاءة» يخاطب نفسه التى استبد بها الفزع، وهو يلاقى أبطال الأعداء، ويدعوها إلى الصبر والثبات، فلكل أجل كتاب، ولا خلود فى هذه الدنيا الفانية، إنما حياة الخلود للشهداء فى العالم الآخر.

يقول قطرى:

أقول لها وقد طارتْ شعاعا
من الأبطال: ويحك لا تراعى
فإنك لو سألت بقاءَ يومٍ
على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبرًا فى مجال الموت صبرا
فما نيلُ الخلود بمستطاع

موروث إسلامى عروبى:

ونعود إلى حوارية الرنتيسى «حديث النفس»، ونرى مضامين الأبيات السابقة، وما حملته من قيم قد انعكست فى مقاطع «الحوارية»، ولا عجب أن تتردد وتتواتر مثل هذه الموروثات القيمية الإسلامية العربية فى شعر يتبنى قضايا الإسلام والعروبة.

والمنهج الفكرى والفنى -فى وقت واحد- يمكن وصفه بمنهج «النزول والصعود التدريجى» الذى ينتهى بحلول «القيمة الصاعدة» أى المنتصرة، وأعتقد أن عرض منطق الطرفين يساعدنا على فهم الحكم السابق:

فأهم أسانيد «النفس الدنيا»:

١- الحزن يبدد العمر، وعلى الشاعر أن يتمتع بنعيم الحياة وبشبابه فى ظلها.

٢- الكفاح يترتب عليه السجون والقيود والضياع والموت ويؤول الأبناء والزوجة إلى المصير نفسه.

٣- وقد يترتب على الكفاح النفى بعيدًا عن الوطن بلا رفيق أو أليف.

ومن أسانيد الشاعر المجاهد:

١- كيف يطيب نعيم والأرض محتلة مستباحة، والقدس يستغيث؟!

٢- والشاعر المجاهد قد جبل على إيثار الموت الزؤام على حياة الذلة والخنوع.

٣- المجاهدون هم المنتصرون دائمًا، فدعوتهم تنتشر، وتسيطر على القلوب بالتعذيب والمحن، أما الزوجة والأبناء فهم فى رعاية الله إذا استشهد رب الأسرة، أو تعرض لمحنة.

٤- إن طريق الصبر والثبات هو السبيل الوحيدة الموصلة إلى الجنة حيث النعيم الخالد الذى لا يفنى.

لحظة التنوير:

وتتنزل النفس تدريجيًا عن مبررات دعواها، وتجنح نحو الصعود إلى عالم الشاعر بقيمه العليا، وبنظرة بصيرة يشعر القارئ- وهو يمضى مع الحوارية - أن «الثنائية» تخف وتنصل تدريجيًا، وتتحول فى النهاية إلى

«أحادية»، أى تنساب فى صوت واحد هو صوت الشاعر، وكأن النفس لم تكن تعارض صاحبها إلا على سبيل «الاختبار» أو «جس النبض»، ونصل إلى «القرار الحاسم» أو «لحظة التنوير» متمثلاً فى صوت النفس التى تحولت تدريجيًا إلى «ذات عليا»، فتقول فى ختام حديثها الموجه إلى الشاعر:

إنى أعيذك أن تذل إلى وثن

أو أن يعود السيف فى قلب الجرابْ

فاقض الحياة كما تريد فلا ولن

أرضى حياة لا تظللها الحرابْ

إلى العلا بلا حساب

إلى العلا بلا حساب

إلى العلا بلا حساب

لغة الشاعر:

وأسلوب الشاعر تغلب عليه لغة « الداعية» الذى يؤمن بالإسلام إيمانًا عميقًا كشرعة وجود، ومنهج حياة، وجهاد وكفاح، وعزة وكرامة، وسمو فى القول والسلوك، ومثل هذا الأسلوب يتسم بالسهولة والوضوح، وإيثار الإقناع على الاستمالة الوجدانية، فيقترب الشعر من المعالجة المنطقية،وهذا على حساب التصوير المحلق، والخيال الابتكارى.

ويحسب للشاعر الشهيد فى هذا المقام تأثره بالموروث الشعرى فقوله: «وإذا قتلتُ ففى الإله مصرعى» متأثر بقول الصحابى الشهيد «خبيب بن عدى» -رضى الله عنه-:

ولست أبالى حين أقتل مسلما

على أى جنْب كان فى الله مصرعى

ويظهر تأثره فى قوله:

يا هذه يهديك ربى فارجعى

بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

وقول الشاعر:

والجنب منى بات يجفو مضجعى

متأثر بقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

وفى تضاعيف القصائد تطالعنا كثير من الكلمات الدينية والقرآنية، فالشاعر -مع أنه تخرج فى كلية الطب طبيبًا- كان ذا ثقافة دينية واسعة انعكست مظاهرها فى شعره.

وفى هذا المقام أيضًا تطالعنا -من ظواهره الأسلوبية- الإكثار من الترادف، والتكرار اللفظى، وغرضه -غالبًا- تأكيد المعنى وترسيخه؛ ففى

آخـر مقطع من قـصـيدته «حـديث النفس» يكرر عـبارة «إلى العـلا بلا حساب» ثلاث مـرات. و فى قصيدته «قـصيدة التحدى فى هجاء الحكام العرب» -وهى من اثنين وعشرين بيتًا- يجـعل فعل الأمر «عودوا» مبتدأ ثمانية أبيات منها؛ لغرض بلاغى هو «التقريع والتوبيخ».

لقد مضى عبـد العزيز الرنتيسى إلى ربه راضيًا مرضيًـا، وكان بجهاده أبلغ قصيدة فى ديوان الجهاد الفلسطينى، يرحمه الله.

الشاعر فى سطور

الدكتور جابر قميحة

من مواليد مدينة «المنزلة» بشمال دلتا النيل بجمهورية مصر العربية سنة ١٩٣٤م.

حاصل على المؤهلات الآتية:

- ليسانس دار العلوم التربوى من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة.
- ليسانس الحقوق - من كلية الحقوق بجامعة القاهرة.
- دبلوم عال فى الشريعة الإسلامية -من كلية الحقوق جامعة القاهرة.
- ماجستير فى الأدب العربى الحديث من جامعة الكويت.
- دكتوراه فى الأدب العربى الحديث - من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

عمل بالتدريس فى الكليات والجامعات الآتية:

- كلية الألسن - جامعة عين شمس.
- جامعة (يل) Yale بولاية (كنكتكت) بالولايات المتحدة.
- الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان).
- جامعة الملك فهد للبترول والمعادن (قسم الدراسات الإسلامية والعربية) - الظهران -المملكة العربية السعودية.

حضر كثيراً من المؤتمرات العالمية، ومنها:

- مؤتمر الشباب المسلم العربى بمدينة (سبرنج فيلد Spring Field) بالولايات المتحدة.
- مؤتمر شباب الجامعات الإسلامية بإسلام آباد.
- مؤتمر رابطة الأدب الإسلامى العالمية - باسطنبول - تركيا
- مؤتمر «ظاهرة ضعف اللغة العربية فى التعليم الجامعى» جامعة الإمام محمد بن سعود - الرياض.
- مؤتمر رابطة الأدب الإسلامى العالمية بالدار البيضاء بالمغرب.
- مؤتمر رابطة الأدب الإسلامى العالمية بأغادير بالمغرب.

عضو فى:

- اتحاد الكتاب المصريين.

الكتب المطبوعة:

١- منهج العقاد فى التراجم الأدبية.

٢- أدب الخلفاء الراشدين.

٣- أدب الرسائل فى صدر الإسلام.

٤- التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى.

٥- صوت الإسلام فى شعر حافظ إبراهيم.

٦- الشاعر الفلسطينى الشهيد عبدالرحيم محمود، أو: ملحمة الكلمة والدم.

٧- التراث الإنسانى فى شعر أمل دنقل.

٨- فى صحبة المصطفى.

٩- المدخل إلى القيم الإسلامية.

١٠- المعارضة فى الإسلام بين النظرية والتطبيق.

١١- الأدب الحديث بين عدالة الموضوعية وجناية التطرف.

١٢- آثار التبشير والاستشراق فى الشباب المسلم.

١٣- الزحف المدنس (ديوان شعر).

١٤- لجهاد الأفغان أغنى (ديوان شعر).

١٥- حديث عصرى إلى أبى أيوب الأنصارى (ديوان شعر).

١٦- لله والحق وفلسطين (ديوان شعر).

١٧- أثر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فى اللغة العربية.

١٨- الإمام الشهيد حسن البنا بين السهام السوداء وعطاء الرسائل.

١٩- رواية «وليمة لأعشاب البحر» فى ميزان الإسلام والعقل والأدب.

٢٠- أدبيات الأقصى والدم الفلسطينى.

٢١- أعداء الإسلام ووسائل التضليل والتدمير.

٢٢- عزة المسلم.

٢٣- الابتلاء وأثره فى حياة المسلمين.

٢٤- أسماء الله الحسنى «ديوان شعر مترجم عن الانجليزية»

البحوث المنشورة فى مجلات:

عشرات من البحوث والمقالات نشرت فى المجلات الآتية:

١- مجلة الدارة (سعودية فصلية محكمة).

٢- مجلة الدراسات العربية (مصرية فصلية محكمة).

٣- مجلة الدراسات الإسلامية (فصلية باكستانية محكمة).

٤- مجلة الشعر (مصرية شهرية).

٥- مجلة الفيصل (سعودية شهرية).

٦- مجلة الحرس الوطنى (سعودية شهرية).

٧- المجلة العربية (سعودية شهرية).

٨- مجلة المنهل (سعودية شهرية).

٩- مجلة الوعى الإسلامى (كويتية شهرية).

١٠- مجلة المجتمع (كويتية أسبوعية).

١١- مجلة المنتدى (تصدر فى دبى - شهرية).

١٢- المسلمون (سعودية أسبوعية).

١٣- القدس (مصرية).

١٤- الرسالة (مصرية).

١٥- الزهور (مصرية).

والحمد لله وب العالمين.

الفهرس